منشورات الاختلاف

الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك

رواية

عمارة لخوص



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

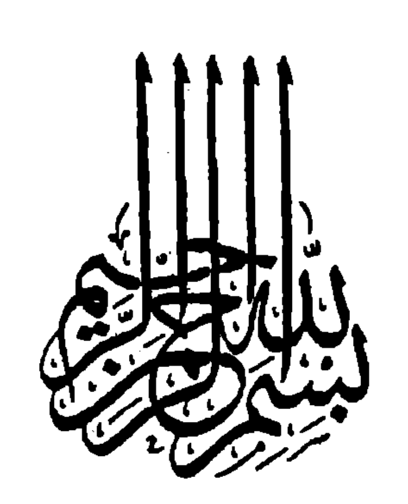
حصريات مجلة الابتسامة

** شهر سبتمبر 2017 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي

كيف ترضع من الذئبة
دون أن تعضّك





كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضَّك

رواية



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

منشورات الاختلاف

الطبعة الثانية
2006م - 1427هـ

ردمك: 1-429-29-9953

منشورات الاختلاف
14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة - الجزائر
e-mail: revueikhtilef@hotmail.com

ردمك: 9961832809

الدار العربية للعلوم
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 860138 . 785107 . 785108 (1-961)
فاكس: 786230 (1-961) ص. ب: 5574 ـ 13 - بيروت - لبنان
البريد الالكتروني: bachar@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

* الأخلاق *

إلى صديقي العزيز

رُوبِرْتُو دِي أَنْجِليس Roberto De Angelis

فائق المحبة والتقدير والامتنان

هل تريد قليلا من الصبر؟

لا . . .

فالجنوبي يا سيدي يشتهي أن يكون

الذي لم يكنه

يشتهي أن يلاقي اثنين:

الحقيقة والأوجه الغائبة.

(الجنوبي)

أمل دنقل (١٩٤٠ ـ ١٩٨٣)

«الحقيقة في أعماق بئر: تنظر في بئر فترى الشمس أو القمر، لكنك إذا ألقيت نفسك فيه، فإنك لن تجد الشمس ولا القمر، هناك الحقيقة فحسب».

«La verità è nel fondo di un pozzo: lei guarda in un pozzo e vede il sole o la luna; ma se si butta giù non c'è più né sole né luna, c'è la verità».

(Il giorno della civetta - يوم البومة)

Leonardo Sciascia (1989 ـ 1921) ليوناردو شاشا

«Les gens heureux n'ont ni âge ni mémoire,
ils n'ont pas besoin du passé».

«الناس السعداء ليس لهم عمر ولا ذاكرة،
فهم لا يحتاجون إلى الماضي»

(L'invention du desert ـ ابتداع الصحراء)

Tahar Djaout (1993 ـ 1954) الطاهر جاووت

المحتويات

حقيقة بارْوِيز منصور صَمَدِي

قبل أيام قليلة، لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً، بينما كنت جالساً على أحد مقاعد المترو أفرك عينيّ وأقاوم بصعوبة النعاس المترتب على النهوض المبكر، إذ وقع بصري على شابة إيطالية وهي تلتهم بنهم بيتزا بحجم المظلة، فأصابني الغثيان، كنت على وشك التقيؤ. حمدت الله أنها نزلت في المحطة التالية. يا له من مشهد فاحش حقا! ينبغي أن لا يفلت من عقاب القانون كل من تسوّل له نفسه إزعاج راحة المواطنين الصالحين الذاهبين إلى عملهم في الصباح والعائدين إلى بيوتهم في المساء. لا شك أن الضرر الناجم عن أكل البيتزا في المترو يفوق بكثير أضرار التدخين. أرجو أن ينتبه المسؤولون إلى هذه الظاهرة الخطيرة، فيسرعون إلى وضع لافتة مكتوب عليها ممنوع أكل البيتزا إلى تلك اللافتات المنتشرة في مداخل وأروقة المترو والمؤلّفة من كلمتين تثيران سخط الكثير من الناس: ممنوع التدخين. ثم أريد أن أفهم: كيف يستطيع الإيطاليون التهام هذه الكميات المعتبرة من العجائن في الصباح والمساء؟

- ...؟

لا! العكس هو الصحيح: للبيتزا علاقة متينة بالموضوع. أنا أكره البيتزا كرهاً لا نظير له، لكن هذا لا يعني أنني أكره كل

من يأكلها! هذه الملاحظة في غاية الأهمية، فلتكن الأمور واضحة من البداية: أنا لا أكن أي عداء للإيطاليين.

- . . . ؟

لم أخرج عن الموضوع على الإطلاق بل أَمِدِيُو في صلب الحديث. الرجاء أن تصبروا علي قليلا. لا شك أنكم تعرفون أن أَمِدِيُو هو صديقي الوحيد في روما بل أكثر من صديق، لا أبالغ إذا قلت إنه في مقام أخي عباس. أنا أحب أَمِدِيُو كثيرا رغم أنه مدمن على أكل البيتزا! كما ترون، كرهي للبيتزا لا ينطوي على أي نوع من الحقد على الإيطاليين.

- . . . ؟

أعرف! أعرف! هذه مشكلة أخرى. لا يهم كثيرا إذا كان أَمِدِيُو إيطالياً أم لا. ما يهم الآن هو أن أتفادى قدر الاستطاعة المشاكل المترتبة عن موقفي الصارم المعادي للبيتزا. أنا لا أبالغ، قبل أسابيع قليلة فصلوني من عملي كغاسل الصحون في مطعم قريب من ساحة نافُونا عندما اكتشفوا عن طريق الصدفة كرهي للبيتزا! أولاد الحرام! بعد هذه الفضيحة تجد من يقول لك إن حرية الأكل والتعبير والاعتقاد والديمقراطية مكفولة في هذا البلد! أريد أن أعرف: هل يعاقب القانون من يكره البيتزا أم لا؟ إذا كان الجواب بالإيجاب؛ فهذه فضيحة لا يمكن التستّر عليها، أما إذا كان الجواب بالسلب؛ فمن حقي أن أرفع قضية لأحصل على تعويض.

- . . . ؟

لا داعي للاستعجال. اسمحوا لي أن أقول لكم: عيبكم

الكبير هو الاستعجال. التسرّع هو شعاركم اليومي، تشربون فنجان القهوة كما يفعل الكُوبُوي بكأس الويسكي، بينما القهوة كالشاي؛ ينبغي أن لا يصب المشروب في الجوف دفعة واحدة بل على جرعات. أَمِدِيُو كالشاي الساخن في يوم بارد.

- . . . ؟

بل أَمِدِيُو كالفاكهة تماما تؤكل في آخر المطاف بعد الانتهاء من المشهيّات أي لانْتِيباسْتي المتمثلة في لابْروسْكيتا بالطماطم أو بالزيتون ثم الطبق الأوّل أي البْرِيمُو الذي يشمل على العجائن المتنوعة التي لا أطيق رؤيتها من سباغيتي ورفْيولي وفِيتوشيني ولازانيا إلى آخر القائمة ويليه الطبق الثاني أي السِكُنْدُو الذي يحتوي على الخضراوات مصحوبة باللحم الأحمر أو الدجاج أو السمك. هذه بعض المعلومات التي جمعتها من خلال عملي المتقطّع في المطاعم الإيطالية. أنا أحب الفاكهة كثيرا، فلا غرابة في تشبيه أَمِدِيُو بالفاكهة. فلنقل إنه حلو وطيب كالعنب وما أحلاك يا عصير العنب!

- . . . ؟

هل هو إيطالي أم لا؟ لا فائدة ترجى من هذا السؤال؛ النفي أو الإيجاب لن يحل المشكلة. ثم ما أدراك من هو الإيطالي؟ من ولد في إيطاليا، أو من يملك جواز سفر وبطاقة تعريف إيطالية، أو من يتقن اللغة الإيطالية، أو من يحمل اسماً إيطالياً، أو من يسكن في إيطاليا؟ المسألة كما ترون معقدة جدا.

- . . . ؟

لم أقل إن أَمِدِيُو لغز يحيّر العقول. إنه كرباعيات الشاعر

الكبير عمر الخيام، تحتاج إلى سنوات طويلة لإدراك مغزاها، عندئذ ينفتح قلبك على العالم وتفيض دموعك لتدفئ خديك الباردين. الآن على الأقل، يكفي أن تعرفوا أن أَمِدِيُو كان يتقن الإيطالية أحسن من ملايين الإيطاليين الذين ينتشرون كالجراد في ربوع المعمورة.

- . . . ؟

أنا لست مخمورا. لم أقصد بهذا الوصف إهانتكم. أنا لا أحتقر الجرادة بل احترمها كثيرا فهي تبحث عن لقمة العيش بكرامة دون الاعتماد على أحد. ثم ما ذنبي إذا كان الإيطاليون متعلقين بمتعة السفر والهجرة؟ الأمر الذي يدعو إلى الإعجاب حقاً هو إتقان أَمِدِيُو للإيطالية. لا يزال يتملّكني العجب كلما أستمع إلى تصريحات بعض السياسيين الإيطاليين في نشرات الأخبار والحصص التلفزيونية. فلنأخذ على سبيل المثال رُوبِرْتُو بُوسُوسُو.

- . . . ؟

ألا تعرفون من هو رُوبِرْتُو بُوسُوسُو؟! إنه زعيم حزب "الشمال" الذي يعادي المهاجرين المسلمين! كلما أسمع صوته يراودني الشك وتستبدّ بي الحيرة، فالتفت حولي وأسأل أول من تقع عليه عيني: "هل اللغة التي يتكلّمها بُوسُوسُو هي الإيطالية حقاً؟". لحد الآن لم أعثر على جواب مقنع، وبالرغم من كل هذا كثيرا ما يقال لي: "أنت لا تعرف الإيطالية" أو "عليك أن تحسّن لغتك أولا" أو "آسف مستواك اللغوي منخفض جدا"،...الخ. عادة ما أسمع هذه الكلمات المهينة عندما أبحث

عن العمل في المطاعم قبل أن أُرمى في المطبخ لغسل الصحون!
"يبدو أن اللغة الوحيدة التي تتقنها يا عزيزي بارْوِيز هي غسل الصحون". هكذا يحلو لسْتِيفانْيا استفزازي والسخرية مني. لا شك أني خيبت أملها، فهي أول من لقنتني أو بالأحرى حاولت تلقيني أصول الإيطالية. أنا لست أَمِدِيُو هذا واضح وضوح النجوم في سماء شيراز الصافية. لكن يؤسفني أن أقول لكم: لست الوحيد الذي لا يتقن الإيطالية في هذا البلد!. لقد التقيت في مطاعم روما بالكثير من الشبان الإيطاليين القادمين من نابولي وكلابْريا وسازدينيا وصقلية وباري وغيرها من المدن الجنوبية، واكتشفت أن مستوانا اللغوي متقارب جدا. كم كان مارْيُو طباخ محطة تِرْمِينِي محقا، كان يقول دائما: "أرى نابولي أولا، ثم أموت! تذكّر يا بارْوِيز أننا كلنا أجانب في هذه المدينة". لم أر في حياتي كلها رجلا مثله، يشرب الخمر كالماء تماما؛ لا يؤثّر فيه أبدا. في إحدى المرات...

- ...؟

أنتم على حق، سأحدّثكم عن مارْيُو النابوليتاني في مناسبة أخرى. ما يهمكم الآن هو معرفة كل شيء عن أَمِدِيُو. يبدو أنكم ستبدؤون العشاء بالفاكهة مباشرة، هذا من حقكم. ألا يقال إن الزبون هو الملك! لا أزال أذكر المرة الأولى التي رأيته فيها. كان يجلس على أحد المقاعد الأمامية القريبة من السبُّورة، فاقتربت من المقعد الشاغر المجاور لمقعده، ابتسمت له وجلست بعد أن قلت له الكلمة الإيطالية الوحيدة التي كنت أعرفها: تْشَاوْ Ciao! هذه الكلمة مفيدة جدا للتحيّة تقال سواء عند الالتقاء أو الافتراق.

هناك كلمة أخرى لا تقل أهمية هي كاتْسُو Cazzo! وتستخدم للتعبير عن الغضب وتهدئ الأعصاب كثيرا، وهي ليست حكرًا على الرجال دون النساء. حتى العجوز البوابة بِنِدِتا تكثر من استعمالها بلا حياء، بالمناسبة العجوز بِنِدِتا هي البوابة التي تشرف على العمارة التي يقيم فيها أَمِدِيُو في ساحة فِيتُوزيو، من عادة هذه الملعونة الاختباء وراء المصعد وهي كلها عزم واستعداد للتشاجر مع كل من يهم باستعماله. أنا أعشق المصعد، لا أستعمله بدافع الكسل وإنما من أجل التأمل. تضع إصبعك على الزِر دون أي جهد، تصعد إلى الأعلى أو تنزل إلى الأسفل، قد يتعطّل وأنت قابع فيه، إنه كالحياة تماما لا يخلو من العطب؛ تارة أنت في الأعلى وتارة أخرى في الأسفل: كنتِ في الأعلى. . . في الجنة. . . في شيراز سعيدا مع زوجتي وأولادي أما الآن، فأنا هنا في أسفل المستنقع... في الجحيم أقاسي حرقة الحنين والفراق. تعوّدت مع مرور الوقت على ممارسة هذه الهواية الجميلة، أي هواية الصعود والنزول، فهي رياضة ذهنية كاليوغا غير أن بِنِدِتا تترصّدني كقطة شرسة، ما إن أضع قدمي في المصعد حتى تصرخ في وجهي: وايّو! وايّو!

– . . . ؟

"وايّو" هي كلمة بِنِدِتا المحببة، لا شك أنكم تعرفون أن "وايّو" تعني "كاتْسُو" بالنابوليتانية. هكذا أكّد لي الكثير من النابوليتانيين الذين عملت معهم. كلما رأتني متوجهاً نحو المصعد، تطلق العنان لحنجرتها: وايّو! وايّو! وايّو! من عادتنا في إيران احترام الشيوخ والعجائز وتجنّب الألفاظ البذيئة، لهذا

السبب عوض أن أرد على الإساءة بالإساءة وأنهال عليها بالشتائم كما يفعل الكثيرون، أكتفي بالردّ عليها قائلا: "مِرْسِي!"، أتركها وأنصرف دون أن ألتفت إليها. بالمناسبة هل تعرفون أن "مِرْسِي" كلمة فرنسية تستخدم للشكر؟ أَمِدِيُو هو الذي أخبرني بذلك فهو يعرف الفرنسية معرفة جيدة.

- . . . ؟

تعرفت عليه في إحدى المدارس المجانية لتعليم الإيطالية للأجانب في ساحة فِيتُورْيُو، كان ذلك عقب وصولي إلى روما بقليل. كان أَمِدِيُو متميزا عن الجميع بمداومته على دروس سْتِيفانْيا دون أن يفوّت درسا واحدا. لم أفقه سر هذا الاجتهاد والتفوق في حينه. لكن العشق كالشمس الساطعة، يستحيل تجاهل أشعته الحارقة، العشق توأم الشباب، صدق المثل الفارسي القائل: سكر الشباب أقوى من سكر الخمر! بعد شهور قليلة قرر أَمِدِيُو الانتقال للعيش مع سْتِيفانْيا في شقتها المطلة على حديقة ساحة فِيتُورْيو، كما انقطع عن الحضور إلى المدرسة لأنه لم يكن بحاجة إلى دروس المبتدئين مثلي، لكننا بقينا على اتصال دائم، كنا نلتقي يوميا تقريبا في بار سانْدْرو لتناول الكابُوتْشِينُو والشاي. سانْدْرو شخص طيب لكنه سريع الغضب، يكفي أن تقول له: "تحيا لاتْسيو!"، لترى الشرر يتطاير من لسانه، أما إذا رآك تحمل رمزا يدل على أنك من محبي نادي روما، فإنه يعاملك معاملة متميّزة تليق بصديق حميم. في إحدى المرّات سألني هل يوجد أنصار نادي روما في إيران؟ قلت له: بالتأكيد. عندئذ أخذني في حضنه.

- . . . ؟

طبعا كنا نلتقي في بيته أيضا، أنا متعلق بمطبخه الصغير، إنه المكان الوحيد الذي يدخل الاطمئنان إلى قلبي المجروح. عندما أتذكر أطفالي الصغار شادي وسعيد وصُهراب وعمر وزوجتي زينب أحزن كثيرا. أقول في نفسي: أين هم الآن؟ لا شك أنهم مشردون في مكان ما. أنا مشتاق لتقبيلهم واحتضانهم جميعا. وحدها الدموع المتدفقة على خديّ وزجاجات "كيانْتي" تطفئ نار الشوق والحنين. أبكي كثيرا وأشرب أكثر لأنسى المصائب التي حلّت بي. تعوّدت على الجلوس يوميا قرب النافورة المقابلة لمدخل كنيسة سانْتا مارِيا ماجُورِي إمّا لإعطاء القمح للحمام أو للبكاء. لا أحد يستطيع أن ينتزع من يدي زجاجة "كيانْتي" إلا أَمِدِيُو، إنه الوحيد الذي يجرأ على إخراجي من جحيم الحزن، يجلس بجانبي صامتا، يتركني أبكي وأشرب لدقائق معدودة، ثم فجأة ينهض كأن حية لسعته ويقول لي بصوت مضطرب: "يا الهي تأخرنا! يجب أن نحضّر الأكل، اليوم حفلة سْتِيفانْيا، هل نسيت يا بارْوِيز؟" إنه يكرّر دائما الكلمات ذاتها وبنفس النبرة والجدية، أنظر إليه وأضحك إلى حد الإنهاك، ويساعدني الضحك على التنفس ويبعدني شيئا فشيئا عن الاختناق. في هذه الأثناء ينهال علي أَمِدِيُو بنكت مضحكة جدا، فنضحك كمجنونين على مرأى السياح. قبل أن نذهب إلى بيته، نمر على بقالة إقْبَال البنغالي في ساحة فِيتُورْيو لشراء لوازم الحفلة مثل الأرز والدجاج والتوابل والفواكه وزجاجات البيرة والخمر. بعد أن أستحم وأغير ملابسي، يفتح لي أَمِدِيُو باب المطبخ قائلا: "مرحبا بك في

مملكتك يا ملك الفرس!" ثم يغلق الباب ويتركني وحدي ساعات طويلة. أشرع دون تأخير في تحضير أطباق إيرانية متنوعة مثل غورْمة سَبْزي وبره كَباب وكشك بادِنْجال وبورَاني كدُو. الروائح التي تعم المطبخ تنسيني الواقع ومشاكله وأتخيّل نفسي في مطعمي في شيراز، في غضون دقائق قليلة تتحوّل رائحة التوابل إلى بخور مما يدفعني إلى الرقص والإنشاد كالدراويش: حي! حي! حي! هكذا ينقلب المطبخ في دقائق معدودة إلى حضرة صوفية! عندما أنتهي من الطبخ أفتح الباب وأجد الضيوف ينتظرون في الصالون، ولحظتها تبدأ الحفلة.

- . . . ؟

لكل شخص مكان يرتاح فيه، هناك من يجد راحة البال في الكنيسة أو في المسجد أو في المعبد أو في السينما أو في الملعب أو في السوق، أما أنا فأرتاح في المطبخ. فلا غرابة في ذلك، فأنا طباخ ماهر ورثت أصول الطبخ أبا عن جد ولست غاسل صحون كما هو شائع عنّي في مطاعم روما. كنت أملك مطعماً جميلاً في شيراز، لعن الله من كان وراء ضياعي، في رمش العين فقدت كل شيء؛ الأهل والبيت والمطعم والمال. قيل لي أكثر من مرة إذا أردت أن تشتغل طباخاً في إيطاليا، يجب عليك أن تتعلّم أصول الطبخ الإيطالي. ما حيلتي! لا أطيق رؤية البيتزا والسْباغِيتي وأخواتها. ثم ما الفائدة من تعلّم الطبخ الإيطالي! أنا لن أبقى طويلا في روما، بعد زمن قصير أعود إلى شيراز، فأنا متأكد من ذلك.

- . . . ؟

أنا أسأل لماذا تصرُّ السلطات الإيطالية على إنكار الحقيقة التي يعرفها الأطباء النزهاء: العجائن تزيد في الوزن وتسبّب السمنة التي تؤدي إلى التفاف الشحم حول القلب وتسد منافذ عروق الدم، وبالتالي يتوقف القلب عن الخفقان. هذا ما حدث بالضبط لمطرب الروك إلْفِيس، هل تذكرون كيف كان نحيلا وجميلا عندما كان يغني بابانْلوما ببانْلو؟ في تلك الفترة كان يأكل الأرز يوميا لكنه للأسف أدمن فيما بعد أدمن_أكل البيتزا التي كانت تصله من المطاعم الإيطالية في هوليود لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي للطبخ أو الجلوس على مائدة الغداء أو العشاء بسبب التزاماته المهنية الكثيرة. كانت النتيجة أنه صار في ظرف قصير ثخيناً كالفيل ومات المسكين بعد أن اجتاح الشحم قلبه ورئتيه ومخه وعينيه وكل جسده. من يستطيع الوقوف في وجه فيضان الشحم؟ لقد نصحت أكثر من مرة الخادمة الهندية ماريا كريستينا بتجنّب العجائن، عندما تعرّفت عليها قبل سنتين كانت نحيلة ثم انتفخت كالمنطاد من جراء الإدمان على السْباغِيتي وأخواتها. قلت لها ذات مرة: "إن الأرز هو طعام الآسيويين المفضل، لماذا تخليت عن أصلك؟" مسكينة ماريا كريستينا! لقد قرروا مؤخرا منعها من استخدام المصعد خشية أن يتعطّل، قيل لها: "وزنك يفوق وزن ثلاثة أشخاص!". إذا لماذا لا تضع وزارة الصحة الإيطالية على أكياس وعلب العجائن الكلمتين التاليتين: مضرة بالصحة؟

- . . . ؟

أَمِدِيُو كالمرفأ الجميل، نبحر منه لنعود إليه دائما. عندما أُطرد

من العمل أجد نفسي كالغريق، وحده أَمِدِيُو يمد لي يد المساعدة.
"لا تقلق يا بازوِيز، تعال نلقي نظرة على جريدة الإعلانات بُورْتا بُورْتِيزي". كنا نجلس في بار سانْدْرو، يفتح أَمِدِيُو الصحيفة، ويضع علامة صغيرة على الإعلانات المهمة، ثم نذهب إلى بيته حيث يشرع في الاتصالات التلفونية. كنت أنظر إليه مدهوشاً كالطفل الصغير الذي يرى قوس قزح. كان أَمِدِيُو رائعا، كنت أستمع إليه وهو يتكلم إيطالية أنيقة، بعد بضعة اتصالات، يأخذ دليل روما ويلقي نظرة خاطفة على بعض الصفحات للتأكّد من بعض أسماء الشوارع، يدوّن بعض الملاحظات في دفتره الصغير ثم ينظر إلي قائلا: "مطاعم روما في انتظارك يا سِنْيُور بازوِيز!". نذهب سويا للقاء أصحاب المطاعم، كان أَمِدِيُو يتكلّم نيابة عني، كم كان مقنعا ورائعا في آن واحد. غالبا ما كنت أبدأ العمل في نفس اليوم كمساعد طباخ قبل أن أُرمى لغسل الصحون في الأيام التالية.

- ...؟

تكمن مشكلتي الأساسية في عدم قدرتي على الانصياع لأوامر الآخرين في المطبخ. إنني أنفر من دور مساعد طباخ بل أفضل غسل الصحون وتحمل آلام الظهر والمفاصل على الاستجابة للأوامر: "قشّر البصل يا بازوِيز! سخّن الماء يا بازوِيز! حضّر العجين يا بازوِيز! خذ الجزر من الثلاجة يا بازوِيز! راقب السْباغِيتي يا بازوِيز! اغسل الفواكه يا بازوِيز! نظّف السمك يا بازوِيز!". بالنسبة لي المطبخ كالسفينة تماما، بازوِيز منصور صَمَدِي لا يطأ سفينة إذا لم يكن هو القبطان! هذه هي الحقيقة.

كان أَمِدِيُو يرافقني دوما لقضاء بعض المشاوير البيروقراطية كتجديد الإقامة واستصدار بعض الوثائق الإدارية. عندما كنت أذهب بمفردي إلى مكاتب البلدية سرعان ما كنت أفقد أعصابي وأملأ المكان بالصراخ. في كل مرة يطردونني كالكلب الأجرب بعد أن يسمعوني الكلمات التالية: "إذا عدت إلى هنا مرة أخرى، فإننا سنستدعي الشرطة!". لا أعرف لماذا يهددونني دوما باستدعاء الشرطة.

- . . . ؟

أين هو الآن؟ لا أعرف، لكن ما أعرفه أن أَمِدِيُو سيخلّف فراغا رهيبا في حياتنا، بل لا أتصور روما دون أَمِدِيُو. لا أزال أذكر ذلك اليوم المشؤوم، عندما ذهبت إلى مركز الشرطة بشارع جِنوفا لاستلام جواب اللجنة العليا للاجئين، صُدمت بكلمات مفتشة الشرطة: "طلبك مرفوض وما عليك إلا الاستئناف!". ذهبت مباشرة إلى أول بار صادفته، اشتريت زجاجات من "كيانْتي" لا أذكر عددها، قصدت ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي، جلست قرب النافورة كعادتي ورحت أشرب وأبكي، حزّ في نفسي أن لا يُقبل طلبي وأُعتبر من الكاذبين. هربت من شيراز لأنني كنت مهددا، لو عدت إلى إيران سأجد حبل المشنقة في انتظاري. عليهم اللعنة! اعتقدوا أنني غشّاش وكاذب. لم يخطر ببالي أبدا ترك إيران، أثناء الحرب مع العراق حاربت في الصفوف الأوّلية، جُرحت أكثر من مرة. ثم كيف أتخلى عن أطفالي وزوجتي وبيتي ومطعمي وشيراز، إذا لم يكن السبب هو الهروب من الموت! أنا لاجئ ولست مهاجرا.

- . . . ؟

لا! هذه الحادثة مهمة جدا، لها علاقة وثيقة بصديقي أَمِدِيُو. قلت لكم بكيت طويلا وشربت كثيرا، ثم خطرت ببالي فكرة مدهشة، عدت في الحال إلى بيت البلدية حيث كنت أقيم، أخذت إبرة وخيط ونفّذت فكرتي. لا أزال أذكر صرخة المساعدة الاجتماعية: "يا الهي، بازوِيز خاط فمه! يا الهي، بازوِيز خاط فمه!". تدخّل أكثر من شخص لإقناعي بفكّ الحصار عن فمي، لكنني رفضت. استدعوا سيارة الإسعاف، حاول الطبيب إقناعي دون جدوى. بعد محاولات متعدّدة دامت ساعات طويلة، اتصلوا بالشرطة. حاولوا حملي عُنوة إلى المستشفى، لكنني قاومت بكل ما أوتيت من قوة. أغمضت عيني وخيّل إليّ أنني نائم قرب ضريح حافظ في شيراز كما كنت أفعل عندما كنت صبيا. بذلت جهدا كبيرا في إقناع نفسي أن كل ما يحدث لي هو كابوس مزعج أو هلوسة ناتجة عن الإفراط في الشرب.

- . . . ؟

ثم فتحت عيني على وقع صراخ شرطي وهو يلوّح بعصاه قائلا: "إمّا أن تذهب إلى المستشفى طواعية وإمّا نأخذك مقيّدا إلى المصحّة العقلية!". قلت في نفسي لن أتحرّك من هذا المكان إلا في نعش. أغمضت عينيّ من جديد كأنني جثة هامدة، بعد وقت وجيز أحسست بيد تشد على يدي، كانت يدا دافئة، فتحت عيني بصعوبة شديدة، رأيت أَمِدِيُو قبالتي يبكي. كانت المرة الوحيدة التي أراه فيها يبكي، احتضنني بقوة كما تفعل الأم مع ابنها الذي باغته المطر عند عودته من المدرسة، فصار يرتعش من

البرد. بكيت في حضنه طويلا، كانت دموعي تنهمر كالفيضان. بعد توقفي عن النحيب رافقني أَمِدِيُو إلى سيارة الإسعاف وذهبنا معا إلى مركز الاستعجالات حيث نزعوا الخيط من فمي، بدأت أتنفس بمشقة كبيرة. إثرها أصرّ أَمِدِيُو أن أقضي تلك الليلة في بيته. الحقيقة أن أَمِدِيُو هو الوحيد الذي يحبني في هذه المدينة.

- . . . ؟

هذا مستحيل! أَمِدِيُو قاتل! لن أصدق أبدا ما تقولون. أنا أعرفه كما أعرف ذوق "كيانْتي" وطعم غوزمة سَبْزي. أنا متأكد من براءته. ما علاقة أَمِدِيُو بذلك المنحرف المقتول الذي يبول في المصعد؟ رأيته بعيني يبول في المصعد، قلت له: "هذا المصعد ليس مرحاضاً عمومياً"!، نظر إلي بوقاحة قائلا: "لو قلت لي هذا الكلام مرة أخرى، فإني سأبول في فمك! أنت في بيتي، لا حق لك في الكلام! هل فهمت أيها الأجنبي الحقير؟". ثم أخذ يصرخ في وجهي: "إيطاليا للإيطاليين! إيطاليا للإيطاليين! إيطاليا للإيطاليين": لم أرغب في الاشتباك معه لأنه مجنون. هل سمعتم عن إنسان عاقل يبول في المصعد بلا حياء ويطلق على نفسه كنية "الغْلاَدْياتور"؟! بصراحة أنا لست متأسفاً لمقتله. لم يكن الشاب الغْلاَدْياتور المجنون الوحيد في العمارة، فهناك أيضا جارة أَمِدِيُو التي تنادي كلبها الصغير: Amore أي حبيبي! إنها تعامله كابن أو زوج، بل سمعتها مرة تقول إنه ينام معها في نفس السرير! أليس هذا هو الجنون بعينه! لقد خلق الله الكلاب للحراسة والسهر على حماية القطيع من هجوم الذئاب وإبعاد اللصوص وليس للنوم في أحضان النساء!

- . . . ؟

ابحثوا عن الحقيقة في مكان آخر. أنا أشك في الشاب الأشقر الذي كان يسكن مع الغْلاذياتور في نفس الشقة. من المؤكد أنه جاسوس أو عميل أحد أجهزة المخابرات. رأيته عدة مرات يتبعني ويراقبني من بعيد بينما كنت منهمكا بإطعام حمام ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي .في إحدى المرّات انهال عليّ بأسئلة غريبة: "ما هو سر تعلقك بالحمام؟ ما هو سر تعلّقك بالمصعد؟ ما هو سر تعلّقك بخمر "كيانْتي"؟ ما هو سر علاقتك بأَمِدِيُو؟ ما هو سر كرهك للبيتزا؟". فصرخت في وجهه قائلا: "ماذا تريد منّي أيها الجاسوس؟!". أليس الجاسوس من يبحث عن الأسرار؟! عندئذ نظر إليّ مدهوشاً: "ألم تفهم بعد أنني بحاجة ماسة إلى كل المعلومات المتعلّقة بحياتك من أجل الفيلم!"، وأجبته متعجّبا: "عمّا تتحدّث؟"، فردّ بتصميم وحزم: "إني أتحدّث عن الفيلم الذي سأقوم بإخراجه وستكون أنت أحد أبطاله يا بازْوِيز". إثرها استبدّت بي الحيرة الشديدة ورحت أتساءل: هل هذا الأشقر الملعون هو جاسوس أم مجنون؟ فاتحت أَمِدِيُو في الموضوع لكنه تبسّم وقال لي: "لا تخش يا بازْوِيز من الأشقر، إنه يحلم أن يصير مخرجاً سينمائياً يوما ما، يحتاج الإنسان إلى الحلم كحاجة السمكة للماء". لم أفهم جيدا كلام أَمِدِيُو لكن لا يهم، ما يهم حقاً أنني أثق فيه ثقة عمياء.

- . . . ؟

هناك خطأ ما. أمامكم أمثلة كثيرة، بعد حادثة إضرابي عن الكلام، أقنعني أَمِدِيُو بتقديم الاستئناف وتكفّل هو بالمصاريف

والمتابعة. بعد مدة أعادوا فحص ملفي، فتأكدوا أنني صادق لم أكذب على أحد وأنني قلت الحقيقة الكاملة. لم يمض وقت طويل حتى منحوني اللجوء السياسي. أنا صريح ولا أحب اللف والدوران، بعد أن خسرت أطفالي وزوجتي وبيتي ومطعمي، ليس لي ما أخسره، اسمحوا لي أن أقول لكم: أنا لا أثق كثيرا في الشرطة الإيطالية. كم مرة اقتادوني إلى مركز الشرطة لاستجوابي كأني مجرم خطير.

- . . . ؟

لم أخرج عن الموضوع! أجيبوا على سؤالي من فضلكم: هل إعطاء القمح للحمام هي جنحة يعاقب عليها القانون الإيطالي؟ سأشرح لكم المسألة: كما تعرفون ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي هي ساحة يرتادها الحمام، أنا أعشق الحمام كثيرا وأجد متعة كبيرة في إطعامه. منظر التفاف الحمام حولي يثير إعجاب السياح فيبادرون إلى التقاط الصور التذكارية، فأنا أساعد على إنعاش قطاع السياحة في روما، لكن هذا الأمر لم يشفع لي، إذ حاولت الشرطة مرارا منعي من الاقتراب من الحمام، قلت لهم: "أي قانون يمنع إعطاء الأكل للحمام!". بذلت كل ما في وسعي لأشرح لهم أن الحمام هو شعار السلام في كل الأعراف بل هو شعار الأمم المتحدة! أتساءل كيف تمنعني السلطات الإيطالية من إطعام الحمام وهي عضو في الأمم المتحدة؟! لقد عاملوني معاملة سيئة دون أن أقترف أي ذنب بل ذهبوا إلى حد إهانتي بقولهم: "هل تريد أن تحوّل روما الجميلة إلى مزبلة؟ اذهب إلى بلدك وافعل ما شئت!". لم أستسلم لتهديداتهم وقاومت دون هوادة،

عاهدت نفسي أن أبقى وفياً للحمام ولا أتركه يموت جوعا. ثم توسّط أَمِدِيُو بيننا، فاتفقنا على أن آخذ القمح الذي أعطيه للحمام من البلدية، لم أفهم معنى هذا الاتفاق، المهم أنني ارتحت من مضايقة الشرطة وصرت أحصل على القمح دون أن أدفع شيئا من جيبي.

- . . . ؟

حسنا! دعنا من سوء المعاملة التي أتلقاها من الشرطة، فلنتكلّم عن البوابة بِنِدِتا التي لا تكف عن تسليط لسانها القبيح وإسماعي ما لا أرغب، قلت لها ذات مرة بعد أن ضاق صدري ونفد صبري: عيب عليك وأنت في هذا السن أن تقولي "وايّو"! لكنها استمرت في مناداتي دون حياء "وايّو" أي كاتْسُو! إهانات هذه الملعونة ليس لها أول ولا آخر، ذات مرة سألتني بوقاحة: "هل تأكلون لحم الكلاب والقطط في ألبانيا؟". تحكّمت في أعصابي بمشقة وقلت لها: "هل تعرفين عمر الخيام؟ هل تعرفين سعدي؟ هل تعرفين حافظ؟ لسنا متوحشين حتى نأكل القطط والكلاب! ثم ما علاقتي بألبانيا؟". تعوّدت منذ صغري على احترام المسنين، لذلك غادرت المكان قائلا: "مِرْسِي يا سِنْيُورة!".

- . . . ؟

في الختام أنصحكم بالبحث عن الحقيقة. أَمِدِيُو ليس القاتل، لا يمكن أن تكون له علاقة بهذه الجريمة. أَمِدِيُو بريء من دم الغْلاذْياتور. أنا حزين لغيابه، لا أعرف ماذا حدث له بالتحديد لكني متأكد من أمر واحد: من الآن فصاعدا لن ينتبه إليّ أحد

عندما أبكي وأشرب في ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي. من سينزع من يدي زجاجة "كيانْتي"؟ أنا أفكّر جديا في الرحيل، إذا لم يرجع أَمِدِيُو في الأيام القليلة القادمة فإني سأهجر روما ولن أعود إليها أبدا. أيها السادة روما دون أَمِدِيُو لا تساوي شيئا. أَمِدِيُو هو الملح الذي يعطي لطعامنا المذاق الطيب.

العواء الأول

الأربعاء 5 مارس: 22,45

اتصل بي هذا الصباح السِنيُور بِنازدِي صاحب مطعم كابري القريب من ساحة نافُونا حيث يشتغل بازوِيز مساعد طباخ، قال إن بازوِيز لا يقوم بما يطلب منه لأنه لا يعرف الإيطالية، فهو لا يفرّق بين المقلاة والطنجرة أو بين البصل والجزر أو بين الريحان والبقدونس. بعد شكوى طويلة أبلغني أنه خيّره بين الفصل من العمل أو غسل الكؤوس، فاختار الاحتمال الثاني.

الثلاثاء 18 مارس: 23,49

عاود السِنيُور بِنازدِي الاتصال بي مرة أخرى، قال لي إنه متأسّف على فصل بازوِيز لأن زجاجة الخمر لا تفارق شفتيه طوال العمل، حذّره مرارا لكنه لم يبال. مسكين بازوِيز؛ إنه مقتنع بأن فصله المتكرّر من العمل يرجع إلى كرهه للبيتزا وليس بسبب اللغة أو شرب الخمر أثناء العمل. المشكلة الآن أن بازوِيز بلا عمل وعندما يصير بازوِيز عاطلاً تتكاثر أحزانه فيشرب أضعاف ما يشربه في أيام العمل. غدا يجب أن أمر على ساحة سانْتا ماريا ماجُورِي عند عودتي إلى البيت، سأجد بازوِيز يشرب ويبكي بجانب النافورة كعادته، ينبغي أن أخبر سْتِيفانْيا بحفلة

ليلة الغد حتى يتسنى لها استضافة بعض الأصدقاء.

السّبت 24 جوان : 23,57

زاد وزني بعض الشيء. يبدو أن بازوِيز محق في قوله: "أنت مدمن من نوع خاص، أنت لا تدمن على المخدرات يا أَمِدِيُو وإنما على البيتزا!". لم أنتبه إلى مسألة البيتزا إلا مؤخرا. لا شك أن البيتزا هي أكلتي المفضلة، لا أستطيع الاستغناء عنها. كل أعراض الإدمان بارزة إذا، امتزجت بدمي كما تفعل الكحول بدم المدمن. عمّا قريب أذوب في العجين وأصير بدوري بيتزا!

الخميس 21 نوفمبر : 22,15

لا يجانب بازوِيز الصواب حينما يقول إن لكل شخص مكاناً يرتاح فيه، يكفي أن تبصر بازوِيز في المطبخ، إنه يشبه الملك في مملكته إذ يستعيد صفاءه وهدوءه في لحظات. أنا أرتاح في هذا المرحاض الصغير، ألا يُسمى المرحاض عندنا بيت الراحة! المرحاض هو المكان الوحيد الذي يضمن لنا الراحة الخالصة والعزلة الحلوة. هذا المكان هو عشّي وهذا المقعد الأبيض الذي أجلس عليه لأقضي حاجتي هو عرشي!

السّبت 3 جويلية : 23,04

حاولت أكثر من مرة إقناع بازوِيز بتعلّم أصول الطبخ الإيطالي لكنه رفض. هذه المسألة تثير تساؤلات عدة، إنها تتجاوز عتبة المطبخ. أعتقد أن بازوِيز خائف من نسيان الطبخ الإيراني إذا ما تعلّم شيئا من الطبخ الإيطالي. هذا هو التفسير الوحيد لكرهه

للبيتزا خصوصا والعجائن عموما. كما يقول المثل العربي: "لا يجتمع سيفان في غمد واحد!". بازْوِيز مقتنع باستحالة الجمع بينهما. بالنسبة لبازْوِيز الطبخ الإيراني بتوابله وروائحه هو ما تبقى من الذاكرة بل إنها الذاكرة والحنين ورائحة الأحبة معا. هذا الطبخ هو الخيط الذي يربطه بشيراز التي لم يفارقها أبدا. عجيب أمر بازْوِيز، لا يعيش في روما وإنما في شيراز! إذا لماذا نصّر على تعليم بازْوِيز الإيطالية وأصول الطبخ الإيطالي؟ هل يتكلم الناس الإيطالية في شيراز؟ هل تؤكل البيتزا والسْباغِيتي والفِتوشِيني واللازانْيا والرافْيولي والتوزتلِيني والبازميجانا في شيراز؟ أوووووووووووووووووو...

الجمعة 14 أفريل: 23,36

اليوم بكيت! لم أصدّق ما رأيته، انهمرت دموعي دون سابق إنذار، لم أتوقّع أن أجد بازْوِيز على تلك الحالة. لم تخبرني المساعدة الاجتماعية في اتصالها الهاتفي بالتفاصيل، قالت: "إن بازْوِيز في حالة سيئة، تعال قبل فوات الأوان". قلت في نفسي لعله شرب أكثر من العادة، أسرعت إلى بيت البلدية الكائن في سان جوفاني، كان عليّ أن أشق الطريق بصعوبة بين الشرطة والممرضين. عندما رأيته مكمم الفم، أحسست بزلزال رهيب في كل أطراف جسمي، لم أقو على الكلام، أمسكت يده واحتضنته بقوة. يا إلهي! من أين يأتي كل هذا الحزن؟ ما هو الصمت؟ ما الفائدة من الكلام؟ هل هناك طرق أخرى لقول الحقيقة دون تحريك الشفتين؟ قالوا لبازْوِيز إن القصة التي رويتها عن هروبك

من إيران قصة ملفقة لا تمت للحقيقة بصلة، إنها قصة تخلو من مشكلة سياسية، فهي أقرب إلى الطبخ من السياسة! لهذا سبب طلبك مرفوض. لم يصدّقوا أنه هرب من شيراز بعد أن عثر حراس الثورة على بعض المناشير السياسية التابعة لمجاهدي خلق في مطعمه. صحيح أن بازوِيز بعيد عن النضال السياسي ولا علاقة له بأحزاب المعارضة لكنه كان مهددا بالموت الأكيد! لقد فرّ في ليلة مشؤومة دون أن يقبّل صغاره وزوجته، لم يكن لديه الوقت الكافي لتوديع حبيبته شيراز!

أسأل بصوت مرتفع من هذا العش القذر التي تتصاعد فيه الروائح التي تزكم الأنوف: من يملك الحقيقة؟ بل ما هي الحقيقة؟ هل تقال الحقيقة باللسان؟ قال بازوِيز حقيقته مكمم الفم، خاط فمه وتكلم بصمته!

اليوم زاد كرهي للحقيقة ونما عشقي للعواء. سأعوي بقية الليل في هذا العش الضيق وأنا أعرف أن عوائي صيحة في واد لن يسمعه أحد غيري. سأودع في هذه المسجلة الصغيرة عوائي المتقطّع ثم أعزي نفسي بسماعه .أووووووووووووووو...

الاثنين 5 أوت: 22,49

في النهاية حلّ السلم بين بازوِيز والشرطة! طال النزاع بسبب حمام ساحة سانتا ماريا ماجُورِي. لم يكن سهلا إقناعه أو إرغامه على التخلي عن إطعام الحمام. يعشق بازوِيز الحمام عشقاً لا حدود له لأنه على قناعة راسخة أن حمامة ما ستحط على كتفه ذات يوم حاملة رسالة من زوجته وأطفاله، فهو لا يزال ينتظر

الرسالة الموعودة خصوصا بعد أن سمع بالمعجزة التي حدثت في ساحة سانتا ماريا ماجُورِي عام 356 م، إذ تساقط الثلج في شهر أوت. في انتظار كل ذلك قررت البلدية التضييق على الحمام في ساحات روما الكبرى بحجة كثرتها وإزعاجها للمواطنين والسياح. قامت بمنع إطعام الحمام في الساحات العمومية بل ذهبت أبعد من ذلك حين أدخلت بعض المواد الكيميائية المانعة للتكاثر في القمح المقدّم لها. اقترحت على مفتش الشرطة بِيتارِينِي أن يتولى بازوِيز كمتطوع إطعام حمام ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي من قمح البلدية، وبعد تردّد طويل أبدى موافقته. لم أجد صعوبة تذكر في إقناع بازوِيز، طبعا لم أقل له شيئا عن طبيعة القمح الذي يحصل عليه مجانا من البلدية!

في كثير من الأحيان تكون عدم معرفة الحقيقة أفضل من معرفتها. أنا مثلا مع الأطباء الذين يخفون حقيقة المرض عن مرضاهم، أي حماقة تدفع طبيبا إلى إخبار مريضه: "ستموت بعد شهرين!". عليك اللعنة دعه يعيش شهرين آخرين دون أن تثقل كاهله بحقيقة قدوم الضيف الثقيل!

هل الحقيقة دواء يشفي أسقامنا أم أنه سم يقتلنا ببطء؟ سأبحث عن الإجابة في العواء .أوووووووووووووووو...

السّبت 25 فبراير: 23,07

لم أفلح في إقناع بازوِيز أن يُوهان فان مازتَن ليس جاسوساً، وإنما طالب هولندي يدرس السينما ويحلم بإعادة مجد الواقعية الجديدة التي ازدهرت بعد الحرب العالمية الثانية بفضل

المخرجين الإيطاليين. يسعى يُوهان أو الأشقر - كما يناديه سكان العمارة - إلى جمع المعلومات المتعلّقة بحياة بازْوِيز والبوابة بِنِدِتا وسانْدرو وأَنْطُونْيُو مارِينِي وإِلِزابِتا فَابْياني وإقْبال البنغالي. إنه يحلم بإنجاز فيلم في ساحة فِيتُورْيو بالأبيض والأسود يتناول حياة هؤلاء. طلب مني يُوهان بإلحاح شديد مساعدته لإقناع بازْوِيز وبِنِدِتا وإقْبال وماريا كريستينا بقية سكان العمارة بالمشاركة في الفيلم. قال لي إن بازْوِيز ممثل موهوب، يملك مؤهلات فنية مدهشة، يكفي أن تنظر إليه وهو يبكي بعفوية ويطعم الحمام قرب نافورة سانْتا مارِيا ماجُورِي لتكتشف نقاط تشابه كثيرة بينه وبين الممثل الرائع أنطوني كوين. ثم توقّف طويلا عند مشكلة الاسم، فاقترح تسمية بازْوِيز باسم جديد يليق بنجم سينمائي واعد: بازفي بْرافو (Parvi Bravo) بدلاً من بازْوِيز منصور صَمَدِي.

حقيقة بِنِدِتا إسْبُوزِيتُو

أنا من نابولي، أقولها بصوت مرتفع دون خجل. ثم لماذا أخجل؟ ألم يولد طُوطُو Totò في نابولي! إنه أكبر ممثل في العالم، فاز بجائزة الأوسكار خمس مرات. أنا من المعجبات بطُوطُو، لا تفوتني أفلامه التي يعرضها التلفزيون رغم أني أحفظها عن ظهر قلب. إنه الوحيد الذي يضحكني حتى لو كنت في قمة الحزن، ولا أستطيع الامتناع عن الضحك حين أشاهد طُوطُو يبيع فونْتانا دِي تْرِيفِي لذلك السائح الساذج! هل تذكرون ذلك الفيلم الجميل؟

- ...؟

اسمي بِنِدِتا لكن يحلو للكثيرين منادتي "لانابوليتانا". لا أتضايق من هذه التسمية إطلاقا. أعرف أن الكثير من سكان العمارة يكرهونني بلا أدنى سبب رغم أنني أمينة ومخلصة في عملي. اسألوا الناس عن أنظف عمارة في ساحة فِيتُّوريو، سيجيبونكم دون تردّد: "عمارة بِنِدِتا إسْبُوزِيتُو!"، لا أقصد أن هذه العمارة ملكي، لتكن الأمور واضحة، لا أريد المشاكل مع صاحب العمارة الحقيقي السِنْيُور كَرْنِفَالِي، أنا مجرد بوابة لا أكثر. في هذه العمارة قضيت أكثر من أربعين عاما، أنا أقدم بوابة في روما كلها، أستحق بجدارة جائزة تقديرية من يدي عمدة روما لكننا في إيطاليا: نتنكّر لكل من يقوم بعمله على أحسن وجه

ونحب المقصّرين.

- . . . ؟

انظروا ما جرى للمسكين جُولْيُو أَندرِيُوتي، بعد أن خدم الدولة عشرات السنين، ألصقوا به تهمة المافيا، اللطف يا مريم العذراء! بل ذهبوا إلى حد اتهامه بتقبيل زعيم المافيا رِينا من الفم! يا للعار! يا للفضيحة! من يصدّق هذه الأكذوبة؟! أندريوتي مسيحي أصيل، لا يفوته أبدا قداس كل يوم، جُولْيُو أندريوتي سِنْيُور حقيقي! السادة بالولادة لا بالاكتساب (signori si nasce) كما يقول طُوطُو. أنا على استعداد تام للمثول أمام محكمة بَلِرْمو لأشهد وأقول بصوت مرتفع: "لم يقبّل جُولْيُو أَنْدرِيُوتي إلا يد قداسة البابا!". لقد انحنى ظهره من كثرة المتاعب والمشاكل، أنا أيضا تقوّس ظهري من مشقة العمل وصارت آلام المفاصل لا تفارقني. أصبحت لا أقوى على تحمّل أعمال التنظيف لكن ما حيلتي إذا كانت منحة التقاعد لا تكفي حتى لشراء الأدوية. المصيبة أنهم دمروا الحزب الديمقراطي المسيحي بعد أن قتلوا زعيمه أَلْدُو مُورُو. في الماضي كنت أصوّت لمرشح هذا الحزب أما الآن اختلط الحابل بالنابل، لا أعرف لمن أعطي صوتي في الانتخابات. نصحني ابني جِنَارُو بالتصويت لحزب بِرْلُسْكوني، قال لي إنه سمع بِرْلُسْكوني في التلفزيون يحلف برؤوس أولاده بأن يجعلنا أغنياء مثله.

- . . . ؟

ماذا تقولون؟! السِنْيُور أَمِدِيُو أجنبي! لا أصدّق أنه ليس إيطالياً. أنا لم أفقد عقلي بعد، بإمكاني التمييز بين الإيطاليين

والأجانب. فلنأخذ على سبيل المثال الطالب الأشقر، لا شك أنه من السويد، يكفي أن تنظر إليه وتستمع لكلامه لتتأكد أنه أجنبي، فهو لا يتقن الإيطالية ويقع في الكثير من الأخطاء اللغوية المضحكة كترديده الجملة التالية: "أنا لست جَنْتِيلِي!" (Io non sono GENTILE!). ومعروف أن كلمة جَنْتِيلِي (GENTILE) تعني اللطيف والمهذب والظريف. هل يُعقل أن يقول المرء عن نفسه أنه غير مهذّب أي عديم التربية؟! إنه يناديني آنا مانياني! قلت له مرارا إن الممثلة آنا مانياني مولودة في روما أي رُومَانا بينما أنا من نابولي وأتحدّث النابوليتانية. طلب مني المشاركة في فيلم، فأجبته أنني أحب الأفلام كثيرا خصوصا أفلام طُوطُو لكن لا أعرف التمثيل، فأنا بوابة ولست ممثلة! عندئذ أخذ يدي وراح يُراقصني، كدت أن أسقط على الأرض، ثم نظر إليّ بجدية: "أنت آنا مانْيَاني الجديدة!". هذا الشاب الأشقر أجنبي من رأسه إلى أخمص قدميه لأنه مجنون وساذج. كثيرا ما أصادف في شوارع روما في فصل الشتاء سيّاحاً من الشقْر والشقراوات يرتدون أقمصة صيفية، أقف حائرة ومدهوشة وأقول في نفسي: "ألا يخاف هؤلاء المجانين من الزكام!".

- ...؟

أصبحت لا أفهم شيئا. اللعنة على الشيخوخة! حسنا، إذا كان السِنْيُور أَمِدِيُو أجنبياً كما تدّعون، فمن هو الإيطالي حقا؟ بدأت أشك في الجميع حتى في نفسي، سيأتي يوم يقولون فيه إن بِنِدِتا إِسْبُزِيتُو ألبانية أو فيلبينية أو باكستانية، عش ترى! إنه يتكلّم الإيطالية خيرا من ابني جِنَارُو بل أحسن من الأستاذ في

جامعة روما أنْطُونيُو مارِيني الذي يسكن في الطابق الرّابع، الشقة رقم 16. أنا أعرف كل شيء عن سكان عمارتي لهذا السبب يتهمونني بالنميمة والتجسّس، هل هذا هو جزائي؟ أنا أخاف على مصلحتهم ولا أدخر جهدا في خدمتهم، قولوا لي: هل التفاني في خدمتهم يعني تدخلا في حياتهم الشخصية؟ الرأفة يا قديس نابولي العظيم.

– . . . ؟

أذكر ذلك اليوم جيدا، كنا في فصل الربيع. مضت خمس سنوات، لمحته يدخل باب العمارة متجها نحو المصعد، سألته: "إلى أين يا وايّو؟"، فأجابني قائلا: "أنا ذاهب إلى الطابق الثاني يا سِنْيُورة". ألححت في معرفة المزيد، فاكتشفت أنه ذاهب عند سْتِيفانْيا. عندما همّ بفتح باب المصعد، قلت له: "الرجاء أن تستعمل المصعد برفق، وتأكّد من غلق الباب بإحكام، ولا تضغط على الزِر بقسوة!". نظر إليّ مبتسماً ورد قائلا: "غيّرت رأيي، سأذهب مشياً على الأقدام". ظننته يسخر منّي، كنت أنتظر أن يسبني كما يفعل غيره لكنه ابتسم ابتسامة أكثر رقة من الأولى وقال مودعاً: "طاب يومك يا سِنْيُورة!". لم أصدّق نفسي وتساءلت بحيرة: هل بقي إيطاليون يحترمون النساء في هذا البلد؟ يومها أحسست بعقدة الذنب تجاهه وعانيت من وخز الضمير، أقسمت أن أعامله معاملة جيدة إذا ما عاد مرة أخرى.

– . . . ؟

يجب أن تعرفوا أن السِنْيُور أَمِديُو هو الوحيد الذي يمتنع عن استعمال المصعد في هذه العمارة احتراماً لي فهو يدرك

المصائب التي تنهال على رأسي كلما تعطّل. مصائب هذا المصعد لا تنتهي: هناك من يتربّص بي خفية ويبول في المصعد حتى أُطرد من عملي! عقدنا أكثر من اجتماع لبحث هذه المسألة الخطيرة ولكننا لم نصل إلى حل مقنع. فكرت في الاتصال ببرنامج القناة الخامسة "حاشية حول الخبر" (striscia la notizia) الذي يهتم بمشاكل المواطنين ويقترح الحلول الناجعة لكن تراجعت حتى لا ألحق الأذى بسمعة عمارتي، ثم خطرت ببالي فكرة مدهشة إثر مشاهدتي أحد أفلام جِيمس بونْد، فقررت أن أضع كاميرا مخفية صغيرة جدا في المصعد قصد الكشف عن الفاعل، لكني تخليت عن هذه الفكرة لتكاليفها الباهظة وخشية أن أُتهم بالتجسّس والتعدي على الحياة الخاصة.

- ...؟

كنت أتحدّث عن السِنيُور أَمِدِيُو، أليس كذلك؟ بعد ذلك بوقت قصير جاء للإقامة مع سْتِيفانْيا. كم كنت سعيدة بهذا الساكن الجديد. هذه الحياة ليست عادلة على الإطلاق. قولوا لي: هل تستحق سْتِيفانْيا مسّارو شابا وسيما مثل السِنيُور أَمِدِيُو؟! هذه الشيطانة تكرهني كأنني قتلت والديها، أنا أيضا أكرهها، أتحاشى قدر الاستطاعة التحدّث معها. كيف لي أن أنسى ما كانت تفعله بي أثناء طفولتها؟ كانت تدق أجراس العمارة وتوسّخ السلالم عمدا حتى تؤلب ضدي بقية السكان. ما أكثر المرّات التي اتهموني بالتقصير في عملي بسببها، سعت بشتى الوسائل لطردي من العمل لكنها لم تفلح. أنا لا أخاف من بطش الآخرين ما دام القديس جِنَارُو معي. ألم أطلق اسم قديس نابولي العظيم على ابني

الوحيد جِنَارُو! ألا يكفي هذا للبرهنة على الولاء له!

- . . . ؟

لا! السِنْيُور أَمِدِيُو لا دخل له في هذه الجريمة البشعة. أنا لا أعرف من قتل لُورانْزو مانْفرِيدي؟ وجدته في المصعد مقتولاً يسبح في دمه. لم يكن "الغْلاذياتور" شخصاً محبوباً في ساحة فِيتُورْيو، أنا متأكدة أن سبب انحرافه هو البطالة. ما أكثر الشبان الإيطاليين الذين لا يجدون عملا شريفا فهم مجبرون على السرقة والكسب غير المشروع. يجب طرد العمال المهاجرين وتعويضهم بأبنائنا المساكين. ابحثوا عن المجرم الحقيقي، أنا أشك في صديقه الألباني، لم أفهم سر صداقة السِنْيُور أَمِدِيُو بذلك المنحرف! أخبرتني إلِزابِتا فَابْيانِي أنها رأت الألباني مرارا يشرب ويضحك بوقاحة حد البكاء على مرأى السياح في ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي! حاولت أن أنصح السِنْيُور أَمِدِيُو بالابتعاد عن هذا النوع من الأجانب المنحرفين لكنه لم يستمع إلى نصيحتي بل فتح له باب بيته والنتيجة أمام أعينكم.

- . . . ؟

أنا أقول إن الألباني هو القاتل الحقيقي. هذا الملعون عديم التربية، عندما أناديه: وايّو! فأنا لا أعرف اسمه ومن عادتنا في نابولي استعمال هذه الكلمة التي تعني "أيها الشاب"، لكنه يردّ عليّ بالسب والشتم. لا أذكر الكلمة القبيحة التي يقولها لي دائما، آه تذكرتها مِرْسا أو مِرْسِيس! ما يهم أن هذه الكلمة الألبانية تعني "كاتْسُو" وتستخدم للسب في ألبانيا! ثم ما يزيد في شكوكي إنكاره الشديد لبلده الأصلي، حاول مرارا إقناعي أنه من بلد آخر

غير ألبانيا. إنه ليس الوحيد الذي ينكر بلده الأصلي حتى يتجنّب الطرد الفوري من إيطاليا. الخادمة الفليبينية ماريا كريستينا التي ترعى شؤون العجوز رُوزا تقول لي دوما أنها ليست من الفليبين وإنما من بلد آخر لا أذكر اسمه. لا أفهم لماذا تتسامح الشرطة مع هؤلاء المنحرفين؟! أنا أعرف بعضهم معرفة جيدة، لا أبتعد كثيرا عن ساحة فِيتُورْيو، هل تعرفون إقْبَال الباكستاني، صاحب بقالة شارع لا مارْمُورا، هو أيضا ينكر بشدة بلده باكستان، يقول لي دائما: "أنا أكره باكستان". هل يُعقل أن يكره الإنسان بلده بهذا الشكل؟! أنا أذكر إقْبَال جيدا، كان حمالا في سوق ساحة فِيتُورْيو قبل سنوات قليلة أما الآن فصار تاجرا كبيرا! قولوا لي: من أين له كل هذه الخيرات؟ من أين جاء بالمال لشراء البقالة وسيارة شحن البضائع والمحمول والبضائع المستوردة؟ التفسير الوحيد أنه يتاجر في المخدرات ويدير شبكة كبيرة للدعارة!

- ...؟

أتساءل عن مصير الضرائب التي ندفعها للدولة، أليس لحمايتنا من هؤلاء المنحرفين؟ لماذا لا يزجون بإقْبَال والألباني وبقية المهاجرين المنحرفين في السجون أو يطردونهم من البلد؟ أنا لا أطيق رؤية الخادمة الفليبينية ماريا كريستينا، فهي تستفزّني بوقاحة لا توصف. أنا لا أحب الكسالى. لا أزال أذكر عندما جاءت أول مرة لترعى العجوز رُوزا، كانت نحيلة كعصا المكنسة بسبب الجوع أو سوء التغذية، فلا يزال الكثير من الناس في إفريقيا والبرازيل ومناطق أخرى من العالم يقتاتون من المزابل العمومية. بعد شهور قليلة صارت سمينة من فرط الراحة

والأكل، فهي تنام كثيرا ولا تغادر البيت إلا لحاجة ماسة ولا تكترث بالمشاكل المتعلّقة بالضرائب والكراء وفاتورات الغاز والكهرباء والماء والتدفئة وغيرها من منغصات الحياة اليومية. إنها تحصل على كل شيء بالمجان وتتصرف كأنها صاحبة البيت! هل هذا عدل؟ أين المنطق في هذه الوضعية: أنا الإيطالية العجوز المريضة أشقى وأتعب وهي المهاجرة الشابة السمينة التي تطفح بالصحة تأكل ما طاب لها وتنام ما شاءت كالقطة المدللة! أعرف أنها لا تملك وثيقة الإقامة ولكني لا أستطيع إبلاغ الشرطة خشية أن أسبب الأضرار لأهل العجوز رُوزا، مما قد يدفعهم للانتقام مني شر انتقام.

- ...؟

أنا متأكدة من أن قاتل الشاب لُورانْزو مانْفرِيدي هو واحد من المهاجرين. يجب على الحكومة أن تتصرف بسرعة. عمّا قريب سيطردوننا من بلدنا. يكفي أن تتجول بعد الظهيرة في حديقة ساحة فِيتُوريو لترى أن الأغلبية الساحقة من الأطفال أجانب من المغرب ورومانيا والصين والهند وبولونيا والسنغال وألبانيا. إن العيش معهم مستحيل، لهم دين وتقاليد وعادات مختلفة عنّا. في بلدانهم يسكنون في العراء أو في الخيام، ويأكلون بأيديهم، ويركبون على الحمير والجمال، ويعاملون النساء كالعبيد. أنا لست عنصرية، لكن هذه هي الحقيقة! ثم لماذا يأتون إلى إيطاليا؟ لا أفهم، البطالة منتشرة بكثرة عندنا. لا يزال ابني جِنَارُو عاطلا عن العمل، لولا زوجته مارينا الخياطة ومساعدتي المتواصلة له لصار متسوّلا على باب كنيسة سان دومننكُو ماجُورِي في نابولي! إذا

كانت فرص العمل غير متوفرة لأهل البلد، كيف نستطيع استقبال هذه الأعداد الكبيرة من المهاجرين؟ لا تخلو نشرات الأخبار التلفزيونية يوميا من مشاهد سفن المهاجرين غير الشرعيين الذين يحملون الأمراض المعدية كالطاعون والملاريا!

- . . . ؟

أنا أقول إن الإجرام زاد عن حده، في الشهر الماضي لم تعثر إلِزابِتا فَابْياني، الأرملة الساكنة في الطابق الثاني على كلبها الصغير فالِنْتِينُو. أخذته إلى حديقة ساحة فِيتُورْيو لقضاء حاجته ككل يوم، جلست على أحد المقاعد لتستمتع بأشعة الشمس، بعد ذلك بقليل التفتت يميناً وشمالاً دون أن تعثر عليه، طلبت مساعدتي فبحثنا عنه في الحديقة وخارجها ولم نجده. كم بكت المسكينة لفقدان فالِنْتِينُو حتى ظنّ الجميع أنها فقدت ابنها ألْبِرْتو وليس كلبها المدلّل! قلت لها إن اختفاء فالِنْتِينُو يثير الكثير من الشبهات، لم تكن بحوزتي أدلة قاطعة لكن ما جمعته من معلومات هنا وهناك ترجّح فرضية الاختطاف:

أولا: في السنوات الأخيرة تمّ تدشين الكثير من المطاعم الصينية في ساحة فِيتُورْيو وما جاورها.

ثانيا: حديقة ساحة فِيتُورْيو أي مكان اختفاء فالِنْتِينُو هو من الأمكنة المفضّلة التي يرتادها الأطفال الصينيون للعب.

ثالثا: قيل لي إن الصينيين يأكلون لحم القطط والكلاب.

بعد كل هذه المعلومات هل من شك في أن الصينيين اختطفوا فالِنْتِينُو المسكين وأكلوه!

- . . . ؟

السِنْيُور أَمِدِيُو بريء من هذه الجريمة. ألقوا القبض على صديقه الألباني، حقّقوا معه طويلا، سترون كيف سينهار ويعترف. لقد أمسكته متلبساً بإتلاف المصعد مرات عديدة، رأيته يصعد وينزل دون حاجة إلى ذلك، يصعد إلى الطابق الرّابع وينزل إلى الطابق الأرضي، راقبته جيدا حتى تأكّدت من جريمته. قبل أن أتصل بالشرطة، فاتحت السِنْيُور أَمِدِيُو في الموضوع، حاولت أن أجنّبه المشاكل مع الشرطة. هذا الألباني هو المجرم الحقيقي، أنا مستعدة لوضع يدي في النار. هل من العدل أن يذهب السِنْيُور أَمِدِيُو ضحية إجرام بعض الأجانب؟ هل من العدل أن يُتهم مواطن إيطالي صالح بجريمة لم يرتكبها؟ الرأفة يا مريم العذراء!

– . . . ؟

لماذا تصرّون على الخطأ؟ قلت لكم إن السِنْيُور أَمِدِيُو إيطالي أصيل. لقد سألته شخصياً عدة مرات عن أصله وفصله، قال لي إنه من الجنوب. سألته عن والديه وعائلته، عن مكان ميلاده، عن أشياء أخرى لا أذكرها، كان يجيبني دائما بكلمة واحدة: الجنوب. لم أرغب في إزعاجه بأسئلة أخرى والحصول على تفاصيل دقيقة، قلت في نفسي لعله من صقلية أو كلابْريا أو سارديِنْيا. ثم لا فرق بين كتانْيا ونابولي، بين باري وبوتَنْزا، كلنا من الجنوب، لا عيب في ذلك، لأننا في النهاية إيطاليون! روما هي مدينة الوافدين، فالرجاء أن تكفوا عن اتهام أَمِدِيُو بأنه أجنبي. هكذا نحن: في وقت الشدائد نتنكر لبعضنا البعض، بدل أن نتعاون ونتآزر، نسعى بشتى الوسائل للإساءة إلى أنفسنا!

هل نحن شعب مجبول على الخيانة؟ في الحرب العالمية الثانية قاتلنا مع الألمان ثم انقلبنا عليهم وتحالفنا مع الأمريكيين. لا أزال أذكر الجنود الأمريكيين في شوارع نابولي، آنذاك كنت شابة جميلة في مقتبل العمر.

- . . . ؟

نحن شعب غريب! قتلنا موسوليني وعشيقته كْلارِيتا في ساحة عمومية في ميلانو، قمنا بطرد الملك وعائلته إلى الخارج ومنعناهم من العودة، تحدينا قداسة البابا والكنيسة المبجلة حين صوّت أغلب الإيطاليين لصالح الطلاق، ثم رأينا على شاشات التلفزيون رئيس الحكومة السابق جُولْيُو أَنْدرِيُوتي في مقعد المتهمين. أنا لست متعلمة مثلكم لكن من حقي أن أسأل: إذا كان أَنْدرِيُوتي من المتعاونين مع المافيا، هل يعني أنني صوّت بطريقة غير مباشرة لصالح المافيا دون دراية؟ هل يعني أن المافيا هي التي حكمت إيطاليا لسنوات طويلة؟ في النهاية سمعنا بحزب رابطة الشمال الذي يدعو إلى الانفصال عن الجنوب الإيطالي وتأسيس دولة جديدة اسمها بَدانْيا! أي بلد نحن فيه؟! الرحمة يا قديس نابولي العظيم! الرحمة يا يسوع المسيح! الرحمة!

- . . . ؟

أتمنى أن يعود السِنْيُور أَمِدِيُو قريبا. عندئذ ستعرفون الخطأ الشنيع الذي وقعتم فيه. أنا أقول لكم إن هذا البلد بلد العجائب. لن أُفاجأ بعد اليوم إذا سمعت من يقول إن جُولْيُو أَنْدرِيُوتي ألباني أوباكستاني أو فيليبيني! السِنْيُور أَمِدِيُو هو الوحيد من سكان العمارة الذي يتوقف للحديث معي ويناديني دوما بالسِنْيُورة بِنِدِتا

ويتجنّب استعمال المصعد احتراما وتقديرا لمجهوداتي في خدمة سكان العمارة! قصة اختفاء السِنيُور أَمِدِيُو واتهامه الباطل بجريمة قتل الشاب الإيطالي قد تعجّل برحيلي عن روما وعودتي النهائية إلى نابولي، نعم القديس جِنَارُو يناديني! سأذهب إلى كنيسة سان دُومِينِيكُو في نابولي لأصلي من أجل سلامة السِنيُور أَمِدِيُو.

العواء الثاني

الخميس 4 فبراير : 23,14

حاولت عبثا إقناع البوابة بِنِدِتا أن بازوِيز ليس ألبانياً وأن "مِرْسِي" كلمة فرنسية تعني شكرا وتُستعمل بنفس المعنى في إيران. عندما عدت هذا المساء إلى البيت أوقفتني كعادتها، وبعد مقدمة طويلة أكّدت لي أني في مقام ابنها الوحيد، نصحتني بالابتعاد عن طريق الألباني. قالت لي إن هذا المنحرف سيسبب لك الكثير من المشاكل لأن هناك شهود عيان رأوه يتاجر في المخدرات في ساحة سانتا ماريا ماجُورِي متظاهرا بإعطاء الأكل للحمام. لقد أوقفته الشرطة عدة مرات لكنها لم تفهم لماذا أُطلق سراحه بتلك السرعة.

الثلاثاء 4 جوان : 22,57

تعلّق بِنِدِتا بالمصعد يثير الكثير من الفضول. هذا الصباح كانت جد غاضبة على بازوِيز، اشتكت منه طويلا، قالت إن الألباني (هكذا تنادي بازوِيز) يتعمّد إفساد المصعد حتى يتم طردها من العمل بحجة أنها عجوز لا تقدر على الإشراف على شؤون العمارة. وعدتها بالتدخّل لدى بازوِيز لحل هذه المشكلة. أنا أكره المصعد كثيرا لأنه يذكرني بالقبر. أكره الأماكن الضيقة ماعدا هذا المرحاض، هذا عشي. قرأت اليوم في مجلة

"فوكوس" مقالا عن الهدهد، يبدو أنه الطائر الوحيد الذي ينجّس في عشه! هناك طائر آخر لا يقل غرابة عن الهدهد، إنه الغراب الذي دلّ القاتل قابيل على كيفية التخلّص من جثة أخيه هابيل. يقال إنه القاتل الأوّل على الأرض، إذا الغراب هو أول خبير في دفن الأموات في التاريخ. أنا غراب من نوع خاص: مهمتي هي دفن الذكريات الملوثة بالدم.

الجمعة 6 سبتمبر: 22,35

اختفى كلب جارتنا إلزابِتا في ساحة فِيتُورْيو، سألتني بِنِدِتا هذا المساء بإلحاح شديد عن البلدان التي يؤكل فيها لحم الكلاب، أجبتها أنني لا أعرف، ثم فاجأتني بسؤال غريب: "هل يأكل صديقك الألباني لحم الكلاب والقطط؟". أقسمت لها أن بارْوِيز لم يذق في حياته كلها لا لحم الكلاب ولا لحم القطط! سذاجة هذه العجوز براءة طفولية نادرة.

الأربعاء 17 نوفمبر: 23,27

اليوم أخبرتني بِنِدِتا بسر بالغ الخطورة، قالت لي بصوت منخفض حتى لا يسمعها أحد: "الكلب الصغير فالِنْتِينُو لم يختف صدفة وإنما اختطفه الأطفال الصينيون الذين يرتادون حديقة ساحة فِيتُورْيو للعب! إن صيد القطط والكلاب بالنسبة للطفل الصيني هواية تشبه هواية أطفالنا في صيد الفراشات!". ثم نصحتني بتجنّب المطاعم الصينية لأن أكلتهم المفضّلة هي الأرز بلحم الكلاب! تحكّمت في نفسي كي لا أضحك أمامها، ودّعتها

على عجل وصعدت السلالم بسرعة مدهشة، فاتحت الباب ورحت أضحك كمجنون ثم راودتني فكرة رائعة: قلت في نفسي ماذا لو طرقت باب جارتنا إلزابِتا وأخبرتها بما يلي: "عدت توا من المطعم الصيني المجاور حيث أكلت الأرز بلحم شهي وعندما هممت بالخروج سألت صاحب المطعم عن نوعية اللحم الذي أكلته، فأجابني: "إنه لحم كلب صغير وجدناه ذات صباح قرب مطعمنا، كان يحمل في عنقه سلسلة مكتوب عليها اسم فالِنْتِينُو!". لم أضحك بهذا الشكل منذ وقت طويل! على كل حال أتمنى أن يعود الكلب الصغير حتى أستمتع من جديد بنباحه الليلي الجميل.

السّبت 7 جانفي: 23,48

من عادة بِنِدِتا الشكوى، إنها تشتكي من كل شيء: من سكان العمارة، من الحكومة، من تجار ساحة فِيتُوزيو، من رداءة الخدمات الصحية، من غلاء الأدوية، من الضرائب، من المطر، من المهاجرين. غير أنها اليوم فاتحتني في موضوع ابنها جِنَارُو العاطل عن العمل، طلبت مني أن أجد له عملا، قالت لي: "إن الأقارب مثل الأحذية الضيّقة التي تسبب لأصحابها الكثير من الإزعاج"، هذا المثل يشبه المثل العربي القائل: "الأقارب مثل العقارب!". عقب حديثها عن جِنَارُو، راحت تشكو كعادتها من الأجانب الذين يعيثون فسادا في ساحة فِيتُوزيو، تساءلت لماذا لا توقف الشرطة المنحرفين مثل إقْبَال الباكستاني الذي يتاجر في المخدرات ويدير شبكة دعارة. ما لا تعرفه أو لا ترغب في

سماعه أن إقْبَال البنغالي وليس الباكستاني لا يتاجر في المخدرات ولا علاقة له بشبكات الدعارة! إقْبَال عضو في تعاونية تجارية تتكون من خمسين عضوا من بنغلادش، لا سيارة الشحن ولا البقالة من أملاكه الخاصة. لم أر في حياتي عاملا مثله، إنه نحلة بشرية. فكّرت في إخبار بِنِدِتا بالمعلومات التي أعرفها عن إقْبَال ثم عدلت عن ذلك: ما الفائدة؟! البقاء في الكهف أفضل من الخروج منه. لا فائدة من معرفة الحقيقة. العزاء الوحيد هو هذا العواء الليلي. أووووووووووووو...

الثلاثاء 26 أكتوبر: 22,53

هذا الصباح قالت لي بِنِدِتا: "اليوم سيصدر الحكم النهائي في قضية جُولْيُو أَنْدرِيُوتي، أنا لا أثق في التائبين الذين يتهمون الشرفاء زورا كأندرِيُوتي حتى يخلطوا الأوراق". إنها تترقّب قرار المحكمة بقلق شديد، فهي تريد أن تعرف حقيقة العلاقة بين الدولة والمافيا. بدأت هذا المساء قراءة رواية عنوانها "يوم البومة" لليونازدو شاشا، وهي من أجمل ما كُتب عن المافيا. استوقفني هذا المقطع القصير: "الحقيقة في أعماق بئر: تنظر في بئر فترى الشمس أو القمر، لكنك إذا ألقيت نفسك فيه، فإنك لن تجد الشمس ولا القمر، هناك الحقيقة فحسب".

حقيقة إقْبَال أمير الله

السِنْيُور أَمِدِيُو من الإيطاليين القلائل الذين يأتون عندي لشراء بعض المواد الغذائية. إنه زبون مثالي يدفع ثمن السلع نقدا ولم أسجّل أبدا اسمه في دفتر المديونين. شتان بينه وبين بقية زبائني كالبنغاليين والباكستانيين والهنود الذين يدفعون الحساب في أحسن الأحوال في أواخر الشهر. أنا أعرف مشاكلهم، القليل منهم فقط يملك دخلا ثابتاً كل شهر، أما البقية فيعيشون كالطيور؛ لكل يوم قوته. ما أكثر البنغاليين الذين يبيعون الثوم في الأسواق صباحا والزهور في المطاعم ليلا والمطريات في الأيام المطرة. . .

- . . .؟

السِنْيُور أَمِدِيُو إيطالي متميّز؛ إنه ليس فاشياً أي عنصرياً يكره الأجانب مثل الغْلاديَاتور الذي كان يتعدى على المهاجرين ويهينهم بشتى الوسائل. لقد نال هذا الحقير جزاءه. البوابة بِنِدِتا عنصرية كذلك، إنها تكرهني بلا سبب ولا تردّ على تحيتي بل تتعمّد إهانتي عندما تناديني: "يا باكستاني!". قلت لها مرارا: "أنا من بنغلادش ولا علاقة لي بباكستان، بل أنا أكره الباكستانيين كرهاً لا حدود له". في حرب الاستقلال عام 1971، قام الجنود الباكستانيون باغتصاب الكثير من نسائنا. لا أزال أذكر عمتي المسكينة التي انتحرت حتى لا تجلب العار لعائلتنا. آه لو

كنا نملك القنبلة الذرية! أنا أقول إن الباكستانيين يستحقون الموت بالقنبلة الذرية كما حدث مع اليابانيين في الحرب العالمية الثانية!

- . . . ؟

عندما أرى السِنْيُور أَمِدِيُو مع صديقه الإيراني في بار دَنْدِينِي أو ألتقي بهما صدفة في ساحة فِيتُوزيو، فأشعر بالغبطة والارتياح. أقول في نفسي ما أجمل أن ترى المسيحي والمسلم كأخوين؛ لا فرق بين عيسى ومحمد، ولا فرق بين المسيحية والإسلام؛ ولا فرق بين الإنجيل والقرآن! إقامتي الطويلة في روما تسمح لي بالتمييز بسهولة بين الإيطالي العنصري والإيطالي المتسامح: الأوّل لا يبتسم لي ولا يردّ على تحيّتي إذا قلت له تْشَاوْ أو بونْجُورنُو أو بُونَاسِيرا ويتجاهلني كأني غير موجود بل يتمنى من أعماق قلبه أن أتحوّل إلى حشرة قذرة كي يسحقني بقدمه بلا رحمة! أما الإيطالي المتسامح فهو كثير الابتسام وسبّاق إلى التحيّة مثل السِنْيُور أَمِدِيُو الذي كان يفاجئني دوما بالتحيّة الإسلامية: السلام عليكم! إنه يعرف الإسلام معرفة جيدة، في إحدى المرّات قال لي إن الرسول محمد هو القائل: "تبسمك في وجه أخيك صدقة".

- . . . ؟

السِنْيُور أَمِدِيُو الإيطالي الوحيد الذي يمتنع عن إحراجي بالأسئلة المتعلّقة بالحجاب وحقوق المرأة والمحرمات، لا شك أنه سافر كثيرا إلى البلدان الإسلامية خصوصا أن زوجته السِنْيُورة سْتِيفانْيا تملك وكالة سياحية على مقربة من شارع نازيُونالي. الإيطاليون لا يعرفون الإسلام كما يجب، يعتقدون أن الإسلام

هو دين الممنوعات: ممنوع شرب الخمر! ممنوع أكل الخنزير! ممنوع الجنس خارج إطار الزواج! ذات يوم قال لي سانْدْرو صاحب بار دَنْدِينِي: "كم عدد زوجاتك؟"، فقلت له: "عندي زوجة واحدة". فكّر قليلا ثم قال لي: "أنت مسلم مزيّف، لن تذهب إلى الجنة لأن المسلم الحقيقي مطالب بالصلاة خمس مرات في اليوم وصوم شهر رمضان والزواج من أربع نساء". حاولت أن أشرح له أنني فقير ولست غنياً مثل أمراء الخليج حتى أعيل أربع أسر دفعة واحدة لكنه لم يقتنع بكلامي. في النهاية قال لي: "أنا أحترم الرجال المسلمين لأنهم يحبون الإناث كثيرا مثلنا نحن فحول روما كما أنكم تحتقرون الشواذ مثلنا تماما". وسانْدْرو ليس الوحيد الذي يقول لي: "أنت لست مسلماً حقيقياً!"، هناك أيضا العربي عبْدو بائع السمك في سوق ساحة فِيتُورْيو، فهذا الملعون لا يكف عن استفزازي وإثارة أعصابي؛ تارة يجزم بأن المسلم الأصيل عربي اللسان وتارة أخرى يوجّه انتقاداته إلى لقبي "أمير الله" الذي يعتبره مخالفا للإسلام. في إحدى المرّات قال لي: "أنا اسمي عبد الله وأنت اسمك أمير الله، لو كنت تعرف اللغة العربية، لأدركت الفرق بين "العبد" و"الأمير"، فأجبته بحزم: "هذا اسم والدي ولن أغيّره أبدا"، عندئذ قال لي: "أنت كافر لأنك تحسب نفسك أميرا على الله". هذا العربي متطرف ولسانه يستحقّ القطع.

- . . . ؟

السِينْيُور أَمِدِيُو مجرم فار من العدالة؟ لا أستطيع تصديق هذه التهمة. الشيء الذي يحيّرني هو الخبر الذي تناقلته نشرات

الأخبار: السِنْيُور أَمِدِيُو ليس إيطالياً وإنما مهاجر مثلي. أنا لا أثق في صحفيي التلفزيون لأنهم يبحثون دوما عن الإثارة وخلق المشاكل، عندما أسمع ما يقال من أخبار سيئة عن ساحة فِيتُورْيو، يستبدّ بي الشك وأقول في نفسي: هل يتحدّثون عن ساحة فِيتُورْيو التي أقيم فيها منذ عشر سنوات أم عن البْرونْكس الذي نشاهده في الأفلام البوليسية؟!

– . . . ؟

السِنْيُور أَمِدِيُو طيب كعصير المانجو، كان لا يتأخر عن مساعدتنا في كتابة الشكاوى وإعطائنا النصائح اللازمة لمواجهة العراقيل البيروقراطية. لا أزال أذكر وقوفه بجانبي ومساعدتي لحل مشكلتي التي طال أمدها وسبّبت لي القرحة المعدية. بدأت مشكلتي مع الشرطة عندما ذهبت لسحب وثيقة الإقامة، لاحظت أنهم خلطوا بين اللقب والاسم. حاولت أن أشرح لهم أن اسمي إقْبَال ولقبي هو أمير الله أي اسم والدي لأن من عادتنا في بنغلادش إرفاق اسم الابن أو الابنة باسم الأب، للأسف كل محاولاتي باءت بالفشل. كنت أذهب يومياً إلى قسم الشرطة حتى نفذ صبر المفتش وقال لي: "أنا اسمي الكامل مازيو روسي ولا فرق بين مازيو روسي وروسي مازيو كما أنه لا فرق بين إقْبَال أمير الله وأمير الله إقْبَال!". ثم أخذ وثيقة الإقامة وقال لي:

– هل هذه صورتك؟

– نعم.

– هل هذا إمضاؤك؟

– نعم.

- هل هذا عنوانك؟
- نعم.
- هل هذا هو تاريخ ميلادك؟
- نعم.
- إذا ليس هناك مشكلة، أليس كذلك؟
- لا! هناك مشكلة عويصة، أنا اسمي إقْبَال أمير الله وليس أمير الله إقْبَال!

عندئذ غضب مني وهدّدني قائلا: "لو عدت إلى هنا مرة أخرى، فإني سأمزق وثيقة الإقامة هذه وآخذك رأسا إلى مطار فْيومِيشِينو وأضعك في أول طائرة متوجّهة إلى بنْغلادِش! لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى، هل فهمت؟".

- ؟. . .؟

فاتحت السِنْيُور أَمِدِيُو في الموضوع وقلت له إني خائف من أمير الله إقْبَال، ثم رحت أعدّد له المشاكل التي تنتظرني في المستقبل من جراء تشابه الأسماء، من يعلم قد يكون حامل اسم أمير الله إقْبَال مجرماً كبيرا أو تاجر مخدرات أو إرهابياً خطيرا كالباكستاني الذي وقع في قبضة المخابرات الأمريكية مؤخرا؟! لو احتفظت بالهوية الجديدة، فكيف أثبت أن أبنائي الثلاثة هم أبنائي حقا؟ كيف أثبت أن زوجتي هي زوجتي حقاً؟ ماذا يحدث لو اطلعوا على عقد الزواج ووجدوا أن زوج زوجتي ليس أنا وإنما شخص آخر اسمه إقْبَال أمير الله؟! كيف أستردّ مالي المدخّر في البنك؟ في النهاية وعدني السِنْيُور أَمِدِيُو بالتدخّل لتخليصي من هذا الكابوس.

- . . . ؟

بعدها بأيام قليلة وفى بوعده إذ رافقني إلى مركز الشرطة بشارع جِنوفا، كانت المرة الوحيدة التي أدخل فيها أحد مكاتب الشرطة دون أن أقف في الطابور ساعة أو ساعتين، كان في استقبالنا صديقه المفتش بِيتارِيني الذي أخذ مني وثيقة الإقامة وخرج من المكتب وعاد بعد دقائق معدودة، لم أصدّق نفسي عندما قال لي: "خذ وثيقة الإقامة الجديدة يا سِنيُور إقْبَال أمير الله!" قبل أن أشكره، ألقيت نظرة خاطفة على السطرين الأولين: الاسم: إقْبَال. اللقب: أميرِ الله. تنفّست الصعداء وأحسست أن حملا ثقيلا انزاح عن كتفي. بعد خروجنا من مركز الشرطة، خطرت ببالي فكرة مدهشة، فقلت للسِنيُور أَمِدِيُو: إن زوجتي حامل وعمّا قريب سأصير أبا للمرة الرابعة وقد قررت أن أسمي ابني رُوبِرْتُو، سيكون اسمه الكامل: رُوبِرْتُو إقْبَال! لقد أقسمت ولم أحنث، فقد أنجبت زوجتي ذكرا سميته على الفور رُوبِرْتُو. إنها الطريقة الوحيدة لتجنّب مصيبة الخلط بين الاسم واللقب، من المستحيل الوقوع في هذا الخطأ لأن رُوبِرْتُو ومازيو وفرانْشِيسْكو وماسِيمو وجولْيو ورُومانو كلها أسماء وليست ألقاباً. ينبغي أن أبذل كل ما في وسعي لأجنّب ابني رُوبِرْتُو هذه المشاكل البيروقراطية.

- . . . ؟

أنا لا أعرف أين هو الآن لكنني متأكد من أمر واحد: السِنيُور أَمِدِيُو ليس أجنبياً ومجرماً! أنا واثق من براءته من دم الشاب الإيطالي الذي لا يبتسم أبدا. أنا أعرفه منذ أن كنت حمالا

في سوق ساحة فِيتُورِيو أي قبل أن نؤسّس التعاونية التجارية. كما أعرف زوجته السِنْيورة سْتِيفانْيا وهي صديقة زوجتي. لقد ساعدني في الحصول على البيت الذي أقطن فيه الآن بعد أن رفض صاحب البيت تأجيره للمهاجرين، وهو الذي أقنعني بضرورة تعليم زوجتي اللغة الإيطالية. أتمنى أن يصير ابني رُوبِرْتُو مثل السِنْيُور أَمِدِيُو، أنا على وشك الحسم في مسألة إرساله إلى الحضانة الإيطالية بدل الكتّاب لتعلّم القرآن واللغة البنغالية.



العواء الثالث

الثلاثاء 24 فبراير : 22,39

سألني إقْبَال هذا الصباح : هل تعرف ما هو الفرق بين العنصري والمتسامح؟ قلت له : "العنصري في عداء مع الآخرين لأنه يعتقد أنهم ليسوا في مستواه بينما المتسامح يتعامل مع الآخرين دون تكبر واحتقار". عندئذ اقترب مني حتى لا يسمعه أحد كأنه سيفشي سرا خطيرا وقال لي: "العنصري لا يبتسم!".

لقد فكّرت طوال النهار في العنصري الذي يأبى الابتسامة، فوجدت أن إقْبَال قد وضع يده على اكتشاف هام. مشكلة العنصري ليست مع الآخرين وإنما مع نفسه. العنصري لا يبتسم للآخرين لأنه لا يبتسم لنفسه، صدق المثل العربي القائل: فاقد الشيء لا يعطيه.

الإثنين 26 جانفي : 22,05

التقيت إقْبَال هذا المساء قرب ساحة فِنِيسْيا، أخبرني أنه يعاني من القرحة المعدية، ثم نظر إلَيّ بحزن وقال لي: "أمير الله إقْبَال سيقتلني!". النبرة الجادة التي تحدّث بها جعلتني آخذ كلامه مأخذ الجد. في البداية ظننت أن أمير الله إقْبَال هو شخص يهدده ويريد أن يقضي عليه فعلا، لذلك حاولت الاستفسار والحصول على معلومات إضافية. جلسنا في أول بار وقعت عليه عيني، قلت

له: "هل قدّمت شكوى للشرطة؟"، فردّ قائلا: "قدمت أكثر من شكوى لكنهم طردوني". لحسن الحظ لم تدم حيرتي طويلا، فقد مدّ إقْبَال يده إلى جيبه وأخذ وثيقة الإقامة فشرح لي مشكلة الخلط بين الاسم واللقب، إذ توقّف طويلا عند معضلة تشابه الأسماء وذكر لي قصة رجل في بنْغلادِش أُعدم عن طريق الخطأ لأن اسمه الكامل كان يتطابق مع اسم مجرم خطير. في النهاية نظر إليّ وهو يقاوم بصعوبة فرار الدموع من مقلتيه: "أنت تعرفني يا سِنْيُور أَمِدِيُو، اسمي إقْبَال أمير الله وليست لي علاقة لا من قريب ولا من بعيد بأمير الله إقْبَال! أنت الشاهد الإيطالي الوحيد الذي بإمكانه إنقاذي من التهم التي ستوجه إليّ في المستقبل". تأثّرت كثيرا لكلامه ووعدته أن أساعده في القريب العاجل. في صبيحة الغد سأتصل بالمفتش بِيتارِيني الذي ساهم بشكل وافر في حل مشكلة حمام ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي وجنّب بازْوِيز الكثير من المشاكل مع الشرطة.

الخميس 19 جانفي: 23,19

هذا الصباح رافقت إقْبَال إلى قسم الشرطة. لقد تمكّن المفتش بيتاريني من حل المشكلة في دقائق معدودة. كم كانت فرحة إقْبَال كبيرة. بعد أن شكرنا المفتش بيتاريني، أصرّ إقْبَال على استضافتي في بار قريب لتناول الشاي، ثم أخبرني بقراره الذي لا رجعة فيه، قال لي إنه عازم على إطلاق اسم رُوبِرْتُو على ابنه القادم حتى يسهّل على الشرطة عملية التميز بين الاسم واللقب ويجنّب ابنه محنة تشابه الأسماء خصوصا أن ابنه هو أول شخص في تاريخ بنغلادش

يحمل اسم رُوبِرْتُو. ثم أردف قائلا: "أنا أعرف أن أسماءنا صعبة النطق بالنسبة لكم، أنا متأكد أن ابني رُوبِرْتُو سيبتسم له الإيطاليون كثيرا!". لم أرغب في مقاطعته، تركته يُتمُّ حديثه ثم سألته: ماذا لو أنجبت زوجتك أنثى؟ فكّر هنيهة وقال مبتسماً: سأسميها روبِرْتا! سيكون اسمها الكامل روبِرْتا إقْبَال! أقسم لك أنه لا توجد بنت اسمها روبِرْتا في بنْغلادِش كلها. لم أقدر على كبح جماح رغبة في الضحك، فضحكنا معا ولم نبال بنظرات زبائن البار. يا أطباء العالم اتحدوا! اخترعوا دواءً جديدا يشفي العنصريين من الحقد والكراهية. لقد شخّص إقْبَال مرضهم: نحتاج إلى حبوب كالأسبرين مهمتها مساعدة الناس على الابتسام.

الثلاثاء 16 نوفمبر: 23,39

هذا المساء ذهبت مع بازوِيز لشراء الأرز وبعض التوابل عند إقْبَال. تجاذبنا أطراف الحديث حول المناشير المعادية للمهاجرين الملصقة على جدران ساحة فِيتُوريو. أشار إقْبَال إلى صندوق التفاح الموجود أمامه قائلا: "عندما أرى تفاحة فاسدة، فإني أُسرع إلى عزلها عن بقية التفاح لأني لو تركتها في مكانها، فإن كل التفاح سيفسد! لماذا لا تتصرف الشرطة بحزم مع المهاجرين المنحرفين؟ ما ذنب المهاجرين الشرفاء الذين يكدون من أجل لقمة العيش؟!".

كلمات إقْبَال جعلتني أنتبه إلى مسألة إلصاق ظاهرة الإجرام بالمهاجرين بلا تمييز، كم عانى المهاجرون الإيطاليون في الولايات المتحدة من تهمة المافيا لكن يبدو أن الإيطاليين لم يتعلّموا من دروس الماضي.

الجمعة 30 أكتوبر : 23,04

اليوم قال لي إقْبَال مفتخرا إن ابنه البكر محمود يتحدّث الإيطالية بطلاقة، فهو الذي يرافق أمه في قضاء بعض المشاغل اليومية كالذهاب عند الطبيب. قلت له: هل تتحدّث زوجتك الإيطالية؟ قال: "لا! البنغاليون لا يرسلون زوجاتهم إلى المدارس لأن الإسلام يحرّم علينا الاختلاط". عندما عدت إلى البيت فاتحت سْتِيفانْيا في الموضوع إذ اقترحت عليها تنظيم دروس لتعليم الإيطالية خاص بالنساء البنغاليات. رحبت سْتِيفانْيا بالفكرة وقالت لي: "عليك أن تقنع إقْبَال وأصدقاءه أولا".

الثلاثاء 26 مارس : 23,49

بعد تردّد طويل أبدى إقْبَال موافقته على تنظيم دروس تعليم الإيطالية للنساء، تشارك فيها زوجته وتتولى سْتِيفانْيا مهمة التدريس. طلبت من إقْبَال أن يقنع بقية الأزواج البنغاليين الذين يعرفهم بإرسال زوجاتهم إلى المدرسة، وعدني أن يفعل كل ما في استطاعته لإقناعهم.

الجمعة 9 فبراير : 23,12

هذا المساء استوقفني طويلا هذا المقطع الوارد في كتاب سيغموند فرُويْد "الطوطم والمحرَّم": "إن الاسم الذي يحمله الإنسان هو عنصر أساسي من كيانه، بل قد يكون جزءا من روحه"

حقيقة إلزابِتا فَابْيانِي

ذهبت إلى المحامي لأرفع قضية ضد مجهول. من أساء إلى الصغير فالِنْتِينُو يجب أن يُعاقب. ما قالته البوابة بِنِدِتا عن الصينيين أثار شكوكي. طرحت على المحامي سؤالا واحدا: "هل يعاقب القانون من يأكل لحم الكلب؟"، فأجابني بشيء من الدهشة والحيرة: "لم أفكّر أبدا في هذه المسألة"، وطلب مهلة من الوقت لمراجعة مجلدات القانون الجنائي واستشارة زملاء المهنة. لم أبق مكتوفة اليدين بل رحت أبحث عن الجمعيات التي تدافع عن حقوق الإنسان وعلى رأسها منظمة العفو الدولية ولكنني صُدمت بالردّ: "نحن ندافع عن الإنسان وليس عن الحيوان". أنا أقول إن هذا البلد ليس بلدا متحضرا. قبل سنة زرت سويسرا وشاهدت بعيني كيف تُعامل الكلاب؛ ما أكثر محلات الحلاقة والعيادات والمطاعم المخصّصة لها، بل رأيت مقبرة صغيرة في جنيف يدفن فيها الكلاب! متى تصير إيطاليا بلدا متحضرا كسويسرا؟

- ...؟

السِنْيُور أَمِدِيُو هو الشخص الوحيد المتسامح في هذه العمارة، لم يتضايق من فالِنْتِينُو عندما كان ينبح بل كان يعامله بعطف وحنان. زوجته سْتِيفانْيا تكره الكلاب كثيرا واشتكت مرارا من نباح فالِنْتِينُو، قلت لها إن النباح هي لغة فالِنْتِينُو الوحيدة

للتعبير عن فرحه وحزنه وغضبه ومشاعره، يجب أن لا نرغمه على الصمت، يجب أن نتسامح معه عندما يبول في المصعد فهو كالطفل الصغير. هل نضرب الطفل الصغير عندما يبول في سريره؟ ليس خافياً على أحد أن الكلاب تستخدم البول وحاسة الشم للاتصال بالعالم الخارجي. هل نحرم الكلاب من حقوقها الطبيعية المشروعة؟ في إحدى المرّات لم أتحمّل تطاول سْتِيفانْيا على الصغير فالِنْتِينُو فصرخت في وجهها: "أنت عنصرية ومتطرفة ولا أسمح لك بإهانة فالِنْتِينُو!". إثر هذه الحادثة قاطعتني سنوات طويلة أما السِنْيُور أمِدِيُو فواصل في تحيّتي كأن شيئا لم يكن. سأذهب إلى سفارة الصين في روما، سأطلب منهم التوسّط في استرجاع فالِنْتِينُو المختطَف.

- . . . ؟

يجب على الدولة الإيطالية أن تقف بجانبي، ألست مواطنة إيطالية صالحة؟! ألا أدفع الضرائب بأمانة وفي وقتها المحدّد؟! أليس من حقي المطالبة بحقوقي التي يكفلها لي الدستور؟! ألست كاثوليكية أصيلة تؤدي واجباتها الدينية على أحسن وجه؟! كتبت ثلاث شكاوى: الأولى لقداسة البابا والثانية لرئيس الجمهورية والثالثة لرئيس الحكومة. فليتحمّل كل واحد مسؤولياته. . .

- . . . ؟

إن صدقت شكوك البوابة النابوليتانية عن تورّط الصينيين في اختطاف فالِنْتِينُو، فإن أقل ما يمكن أن تعمله السلطات الإيطالية تضامنا معي هو قطع العلاقات الدبلوماسية مع الصين ووضع أصحاب المطاعم الصينية في السجن! لا، هذا قليل جدا. يجب

طرد الصين من الأمم المتحدة ومحاصرتها اقتصادياً وسياسياً! هذا أيضا لا يشفي غليلي! ينبغي إعلان الحرب على الصين، أليست إيطاليا عضوا في الحلف الأطلسي المكلّف بشن الحروب؟! ألا يذهب جزء من الضرائب التي أدفعها إلى خزينة الحلف المذكور؟! ألا توجد قواعد عسكرية أمريكية على التراب الوطني؟!

- . . . ؟

هناك شكوك أخرى تحوم حول مارِينا كَنّة البوابة بِنِدِتا التي كانت لا تكف عن القول كلما رأت فالِنْتِينُو: "أنت كنز! أنت كنز!". وليس خافياً على أحد أن أصل هذه المرأة من سَرْدِينْيا وهي منطقة مشهورة بالاختطاف، ألا تذكرون اختطاف المغني فابْريزْيو دِي أَنْدْرِي والمقاول جيُوزِبِي سوفْيَانْتِينِي؟ لا شك أنهم غيّروا إستراتيجيتهم من البشر إلى الكلاب عندما أدركوا محبة الناس للحيوانات وتعلّقهم الشديد بالكلاب والقطط. أنا في انتظار مكالمة المختطِفين لدفع الفدية، لن أخبر الشرطة حتى لا أعرّض حياة فالِنْتِينُو للخطر. أنا مستعدة لدفع كل ما أملكه لاستعادة فالِنْتِينُو. أنا وحيدة دون فالِنْتِينُو. لا أستطيع أن أعيش دونه.

- . . . ؟

لقد حرموني من تحقيق حلمي الكبير في جعل فالِنْتِينُو ممثلا مشهورا كالمفتش "ركس" الذي يلاحق المجرمين الأشرار ويلقي القبض عليهم. طلب مني الشاب الهولندي يُوهان المشاركة في فيلم يريد تصويره في ساحة فِيتُوزْيو. اشترطّت عليه قبل الموافقة أن يشارك فالِنْتِينُو أيضا، في البداية تردّد ثم أبدى موافقته. كنت

أحضر فالِنْتِينُو للمستقبل بعد أن خاب أملي في ابني الوحيد ألْبِرتو. قال لي ألْبِرتو قبل أن يغادر البيت نهائياً ويلتحق بأصدقائه الهبّيين: "هذا البيت سجن وأنت سجّانة وأنا سجين، أريد أن أعيش حرا بلا قضبان! هذا البيت سوق وأنت تاجرة وأنا زبون، أريد أن أعيش بعيدا عن مجتمع الاستهلاك!". لم أفهم لحد الآن: ما علاقتي بالسجن والسوق؟! توسّلت إليه أن يبقى لكنه رحل دون أن يعير اهتماماً لدموعي ونحيبي. كان حلمي الأوّل أن يصير ألْبِرْتو ممثلا سينمائياً مرموقاً مثل مارْشِلو ماسْترُوياني أو ألبِرْتو سُورْدي لكنني فشلت في إيصاله إلى مصاف المشاهير. أنا لا أحب الفشل ولا أرضى بالهزيمة والأمر الواقع، لذلك عقدت العزم على تدريب فالِنْتِينُو على أصعب الحركات. لقد قطعت معه شوطا كبيرا وكنت على وشك أن ألتقط ثمار العمل الشاق.

- ... ؟

أَمِدِيُو مهاجرا هذا أمر عجيب حقا! تشهد ساحة فِيتُورْيو من حين لآخر مسيرات للمطالبة بحقوق المهاجرين: الحق في العمل، الحق في السكن، الحق في الصحة، الحق في الانتخاب، الخ. أنا أقول إنه من الواجب أن نبدأ بأهل البلد الأصليين الذين ولدوا في إيطاليا والكلاب هم من أبناء هذا البلد. أنا لا أثق في المهاجرين. قرأت مؤخرا في إحدى الصحف أن بستانياً مهاجرًا اغتصب سيدة مسنة أعطته كل شيء: وثيقة الإقامة، والعمل، والسكن، الخ. هل هذا جزاء الإحسان؟ هل سمعتم في حياتكم عن كلب اغتصب سيدته؟ هل تعرفون الغجري الذي يتردّد على بيت أَمِدِيُو ويجلس معه في بار دَنْدِيني

ويبيع المخدرات في سانْتا ماريا ماجُورِي متظاهرا بإطعام الحمام؟ قال لي ذات يوم: "في بلادي نترك دائما الكلاب خارج البيت"، قلت له مستفسرة: "كيف؟"، فأجاب بوقاحة: "أليست وظيفة الكلاب حراسة البيت من اللصوص!". فكّرت أن أرفع ضده دعوى قضائية بتهمة القذف والتمييز العنصري ثم تراجعت احتراماً لأمِدِيُو. هذا الغجري المتخلّف المنحرف العنصري يستحق الطرد الفوري من إيطاليا لكن المشكلة أن الغجر لا يملكون بلدا محددا يُطرَدون إليه!

- ...؟

الحقيقة أننا لسنا بحاجة إلى المهاجرين. سمعت من يقول إن الاقتصاد الإيطالي معرض للانهيار إذا غاب المهاجرون! هذه كذبة ينشرها الشيوعيون. نستطيع الاستغناء عن المهاجرين بسهولة، يكفي أن ندرّب كلابنا تدريباً جيدا. مثلا الآن هناك كلاب مدربة بشكل عال لمرافقة العميان خارج البيت للتسوق والقيام بكل المشاوير اليومية كما أن هناك كلابا تساعد في العثور على المفقودين وإنقاذهم من تحت الأنقاض من جراء الزلازل. يجب أن لا أنسى الكلاب التي تعمل في المطارات وتتولى مهمة إلقاء القبض على مهربي المخدرات. لا نحتاج إلى المهاجرين نعلّمهم الإيطالية ونمنحهم السكن والعمل ثم نجدهم يتاجرون في المخدرات في الحدائق العامة ويغتصبون بناتنا. هذا غير معقول على الإطلاق!

- ...؟

من قتل المسكين لُورانزو مانْفرِيدي؟ أنا لا أعرف. اسألوا

الشرطة. أنا أعرف تمام المعرفة القتيل المأسوف عليه، كان صديقا لابني ألْبرْتو أثناء الطفولة والمراهقة، كانا لا يفترقان كأنهما أخوين. جاء لُورانْزو للعيش مع جدته العجوز بعد طلاق والديه اللذين خاضا صراعات قضائية محمومة من أجل اقتسام الميراث والحصول على حضانة الولد. لم تكن الجدة قادرة على تربية حفيدها مما دفع لُورانْزو إلى التخلي عن الدراسة مبكرا ومخالطة بعض المنحرفين. لا شك أنه ذهب ضحية تصفية حسابات بين عصابات المخدرات. هل تذكرون شيكاغو في الثلاثينيات؟

- . . . ؟

يجب على الحكومة أن تنتبه إلى مسألة المصاريف والتكاليف، فالحل ليس في رفع الضرائب وخنق المواطنين الإيطاليين وإنما في الاستعانة بالكلاب التي تُكلف القليل وتؤدي خدمات مجانية لا تحصى. يجب أن ندرّبها أحسن تدريب على كل شيء: القبض على المجرمين، مساعدة المسنين، تشغيل الآلات الكهربائية، تحضير الطعام، الخ. آه نسيت مسألة مهمة جدا: بإمكان الكلاب العمل في المصانع الكبرى دون أن تفكّر لحظة واحدة في توقيف الإنتاج وإعلان الإضراب، الكلاب لا تُضرب أبدا عن العمل. ألا تريد الحكومة التخلّص من نقابات العمال، ألا تبحث الحكومة عن عمال مطيعين يمكن فصلهم من العمل دون تحمل أي تبعات قضائية! أنا مقتنعة تمام الاقتناع بما يقوله الأستاذ أنْطُونْيو مارِيني: مشكلتنا الأساسية هي التخلّف، للأسف إيطاليا بلد غير متحضّر. أنا أقول بصوت مرتفع: "لقد حان الأوان للتخلّي عن الموقف الساذج والمتخلف الذي يقول إن الكلاب تصلح للحراسة فقط!".

- ... ؟

في النهاية من واجبي لفت أنظاركم إلى المسألة التالية: هناك تشابه كبير بين اختفاء أَمِدِيُو واختفاء فالِنْتِينُو. أعتقد أن أَمِدِيُو تعرّض للاختطاف. يجب على الشرطة أن تلقي القبض على عصابة المختطِفين التي تنشط في ساحة فِيتُوزْيو. هناك تحالف سري بين أهل سَرْدِينْيا والصينيين. هذه هي الحقيقة التي توصّلت إليها بعد تفكير طويل. ليست بحوزتي أدلة كافية لكن هناك شكوك ومؤشرات بالغة الخطورة. إذا لم يعد فالِنْتِينُو سالماً ومعافى، فإني لن أدفع الضرائب بعد اليوم بل سأهاجر إلى سويسرا بلا إبطاء ولن أرجع إلى إيطاليا أبدا.



العواء الرّابع

الثلاثاء 23 مارس: 22,48

إن جارتنا إلِزابِتا فَابْياني مدمنة على شيئين اثنين: حب الكلاب والتعلّق بالأفلام البوليسية. لا داعي للحديث معها في مواضيع لا يذكر فيها كلب أو هيتشكوك أو أغاتا كريستي أو المفتش كولُومْبو أو دِيريك أو مونْطِلْبانو أو بْوارُو. إنها تتابع المسلسلات البوليسية يومياً على التلفزيون وتعشق عشقا جنونياً مسلسل "رِكْس" الذي يروي مغامرات كلب يقوم بدور مساعد مفتش الشرطة، ويتمتّع بذكاء مدهش ويقوم بحركات عجيبة تستحق التصفيق.

السّبت 16 جانفي: 23,28

نباح كلب إلِزابِتا يشبه العواء، إنه يدخل شيئا من الغبطة والسرور إلى قلبي. سْتِيفانْيا لا تطيق سماعه، هذا الصباح تشاجرت مع إلِزابِتا وهددتها باستدعاء الشرطة إذا لم يتوقّف كلبها عن النباح في ساعات الليل المتأخرة، قالت لها إلِزابِتا: "أنت عنصرية ومتطرفة لأنك تكرهين الحيوانات". غضبت سْتِيفانْيا غضبا شديدا سألتني بشيء من الحيرة والقلق والدهشة والبراءة: "هل أنا عنصرية ومتطرّفة لأنني لا أطيق سماع النباح في

الليل؟"، فأجبتها قائلا: "نعم أنت متطرفة ولكن في الحب فقط!"، عندئذ ضحكت سْتِيفانْيا وقبّلتني طويلا.

الثلاثاء 14 نوفمبر: 22,57

حذّرتني جارتنا إلِزابِتا هذا المساء من الغجر الذين يرتادون سوق ساحة فِيتُّوزيو لبيع بعض السلع المسروقة. قالت إن الحيوانات أكثر تحضرا من الغجر على جميع المستويات. بعد لفّ ودوران دخلت في صلب الموضوع: "لا تفتح بيتك للغجري المخمور الذي يستغل الحمام لبيع المخدرات". فهمت أنها تقصد بازوِيز، حاولت أن أُصحّح معلوماتها قائلا: "بازوِيز إيراني وليس غجرياً"، فردت بثقة زائدة: "لا يهم إذا كان من إيران أو من الولايات المتحدة أو من سويسرا أو من بلد آخر، ما يهم حقاً أنه يتصرّف كالغجر تماما، لذلك فهو غجري بالاكتساب وليس بالولادة". ودّعتها دون أن أعلّق على كلماتها.

الخميس 23 مارس: 23,45

طلبت مني إلِزابِتا فَانْيانِي هذا الصباح أن أتضامن معها في معركتها الحضارية دفاعا على كلاب العالم. قالت إن سكان العمارة ينوون التصويت على قانون داخلي يمنع الكلاب من استعمال المصعد، وهذا القانون موجّه أساسا ضد المسكين فالِنْتِينُو. ثم راحت تشرح لي أن التمييز العنصري في الولايات المتحدة بدأ عندما تم منع السود من الجلوس على المقاعد الأوتوبيس. في النهاية طلبت منّي الإمضاء على لائحة تدافع عن حق فالِنْتِينُو

وإخوانه الكلاب في العالم أجمع لاستعمال المصعد والمترو وركوب الطائرة والقطار والباخرة والحق في الوراثة والحق في الجنس والحق في الصحة والحق في السكن، الخ. أمضيت على اللائحة دون مناقشة.

الأربعاء 27 أوت : 22,49

هذا الصباح التقيت إلِزابِتا، كانت حزينة جدا، قالت إنها لم تفقد الأمل في رجوع فالِنْتِينُو وتملك أدلة قاطعة على تورّط عصابات الاختطاف من سَرْدِينْيا في اختفاء العزيز فالِنْتِينُو. لا شك أن الكلب الصغير ملأ فراغا في حياتها بعد وفاة زوجها وذهاب ابنها الوحيد للعيش بعيدا عنها. لم يكن فالِنْتِينُو كلبا وإنما رفيق الوحدة.

الأحد 20 أكتوبر : 23,08

تزداد حالة إلِزابِتا فَابْيانِي سوءا يوما بعد يوم. رأيتها هذا المساء تسير قرب ساحة فِيتُورْيو حافية القدمين وهي تنادي كلبها المفقود. منظرها يثير الشفقة، كيف يتعلّق الإنسان بالحيوان بهذا الشكل؟ بدأت أشك في حيوانية هذا الكلب الصغير.



حقيقة ماريا كريستينا غُونْزالِيز

عندما أتزوّج وأنجب ولدا سأسميه أَمِدِيُو! هذا عهد قطعته على نفسي منذ سنوات. للأسف ليومنا هذا لم أذق حلاوة الإنجاب، رغم أني تجرّعت مرارة الحمل عدة مرات. أعرف أن الكنيسة والبابا والقساوسة يعارضون الإجهاض بشدة، لكن لماذا يفكرون في الجنين فقط؟ ألا أستحق القليل من العناية والاهتمام: من يفكّر في المسكينة ماريا كريستينا غُونْزالِيز؟

- . . . ؟

السِنْيُور أَمِدِيُو هو الوحيد الذي يعطف عليّ ويقف إلى جانبي في أوقات المحن. أنا شقية وغبية لا أنكر ذلك، تدعو حالتي إلى الحيرة والتعجّب: من عادة النساء الفرح الشديد عندما يحملن، أما أنا فأبكي كثيرا من شدة الخوف: الخوف من ضياع العمل، الخوف من الفقر، الخوف من المستقبل، الخوف من الشرطة، الخوف من كل شيء. أنا أبكي دائما على السلالم، أقول للسيدة رُوزا أنا ذاهبة لشراء بعض الأغراض، لو تراني أبكي فإنها ستطردني لأنها قالت لي مرارا إنها تتطيّر من البكاء فذلك يذكّرها بالموت، وهي تخاف من الموت. في البداية كنت أبكي في المرحاض، لكن المرحاض موحش وحزين، لا يأتي أحد لإنقاذي. أفضّل السلالم لأن السِنْيُور أَمِدِيُو لا يستعمل المصعد، إنه الوحيد

الذي يسألني عن حالي، أحكي له وأبكي في حضنه.
- . . . ؟

السِنْيُورة رُوزا في الثمانين من عمرها، أصيبت بالشلل منذ عشر سنوات، فهي لا تبرح الكرسي المتحرك إلا عند قضاء حاجتها في المرحاض أو من أجل الاستلقاء على السرير. لها أربعة أبناء يأتون بتتابع لزيارتها كل يوم أحد والبقاء معها بقية ساعات اليوم. عندما يصل أحدهم، تبدأ عطلتي الأسبوعية: من منتصف النهار إلى منتصف الليل! لا أعرف ماذا أفعل للاستمتاع بهذه العطلة القصيرة؟ أنظر بقلق إلى رقّاص الساعة وأتمنى من أعماقي أن يتوقف الزمن كي تدوم حريتي. أحاول عدم تضييع الوقت، فأعمد إلى وضع خطة غنية بالمشاوير، لكن في كل مرة أفعل نفس الشيء: أذهب رأسا إلى محطة تِرْمِينِي وأقصد المكان الذي يلتقي فيه المهاجرون من بيرو، فأرى وجوها تشبع عطش عيني وأسمع كلاما يدفئ أذني الباردة. أشعر كأنني عدت إلى بيتنا في ليما، أحييّ وأقبّل الذين أعرفهم والذين لم أرهم من قبل، ثم أجلس على رصيف المحطة وأبدأ في التهام الأطعمة البيروفية كالأرز بالدجاج ولُومُو سالْتادُو وسِيبِيش. أقضي ساعات في الحديث، ولا داعي للقول إنني أتحدّث أكثر مما أستمع للآخرين، لذلك ينادونني: ماريا كريستينا الثرثارة.
- . . . ؟

عندما تبدأ الشمس بالغروب، يزداد قلقي وأحس أن رحلة الحرية على وشك الانتهاء، فأستعين بزجاجات البيرة وأستنجد بمشروب "بِيسْكُو" الكحولي لصد هجمات الحزن. أشرب كثيرا

لأنسى العالم وما فيه، لست الوحيدة التي ينتظرها سجن الشيخوخة والموت الزاحف، نحن كثيرون ذكورا وإناثا، يجمعنا قدر العمل المشترك مع المرضى المسنين المرشحين للانتقال إلى العالم الآخر بين لحظة وأخرى. مع مرور الدقائق الثمينة نتحوّل إلى كلاب هائجة، فهناك من يترك العنان للسانه للسب والشتم بالإسبانية والإيطالية، وهناك من يستفز الجالسين بجانبه وسرعان ما تتشابك الأيادي وتوجه اللكمات والركلات بطريقة عشوائية، أما أنا فأبتعد في هدوء وصمت عن الأنظار وتحت جنح الظلام أختلي بشاب يشبهني في كل شيء، يفرغ كل واحد شهوته وقلقه وخوفه وحزنه وغضبه وحقده وخيبته في جسد الآخر، وذلك في عجلة من أمرنا كالحيوانات التي تخشى أن يفوتها موسم الإخصاب، نتمدّد على مقعد خشبي مهجور أو على ورق جريدة مبعثرة على الأرض. في كثير من الأحيان أنسى حبوب منع الحمل، ومن هنا تبدأ مشكلتي مع الحمل والسعي المجنون إلى الإجهاض. أعرف أن حبوب منع الحمل ضرورية ولا يمكن نسيانها تحت أي ظرف لكن في كل مرة أنسى بسبب السكر. .

- . . . ؟

كثيرا ما أتمنّى موت العجوز رُوزا ثم يعتريني الندم الشديد عندما أفكّر في العواقب، أخشى أن يكون موتها هو موتي أيضا: إلى أين سأذهب؟ كيف سأعيل أفراد أسرتي الفقراء في ليما؟ ما هو مصيري؟ هذه الحياة ليست عادلة على الإطلاق، هل من العدل أن أعيش شبابي سجينة بين أشباح الموت؟ أرغب في بيت وزوج وأولاد، أستيقظ في الصباح، آخذ أطفالي إلى الحضانة أو

إلى المدرسة ثم أذهب إلى العمل، في الليل أعانق زوجي ويلتحم جسدي مع جسده على سرير مريح وليس على مقعد موحش في حديقة عمومية أو في قطار متوقف مهجور أو تحت شجرة منعزلة!

- . . . ؟

أريد أن أشعر بالاطمئنان لكن المصيبة أنني بلا وثائق، إنني كالقارب الصغير الذي تحطم شراعه وصار تحت رحمة الصخور والأمواج. لو كنت أملك وثيقة الإقامة ما تركت البوابة النابوليتانية تسخر مني وتعيّرني كما يحلو لها، إنها تناديني دائما: "الفليبينية!". قلت لها عدة مرات إني لست من الفليبين إنما من بيرو، أنا من مدينة ليما، لا أعرف كيف يستطيع المرء الخلط بين الفليبين وبيرو! لا أعرف لماذا تتعمّد إهانتي بهذا الشكل. عندما ضاق صدري، قلت لها: "لماذا تحتقرينني؟ هل أسأت إليك دون أن أنتبه؟". أنا مثلا أعرف أنها من نابولي لكني لم أعيّرها إذ لم أسمح لنفسي ولو مرة واحدة بمناداتها "النابوليتانية". قلت لها مرارا: "لماذا تسيئين معاملتي رغم أننا ننتمي إلى دين واحد ويجمعنا حب الصليب ومريم العذراء؟".

- . . . ؟

أنا أخاف من البوابة لأنها قد تبلّغ الشرطة، أنا لا أملك وثيقة الإقامة، فلو وقعت في يد قوات الأمن فإنهم لن يرحموني، في رمش العين أجد نفسي في مطار ليما، سأعود إلى جحيم الفقر. لا أريد العودة إلى بيرو قبل أن أحقّق أمنيتي الثلاثية: البيت والزوج والأولاد. عندما أحصل على وثائق الإقامة سأقول

لها كل ما أريد دون خوف، لن أناديها كما أفعل الآن "السِنيُورة بِنِدِتا" وإنما سأهينها بكلمتين فقط: "البوابة النابوليتانية!". إذا ليس أمامي إلا التوسّل إلى مريم العذراء، فهي الوحيدة التي ستخلّصني من الأشرار.

- . . . ؟

أنا أعاني من الوحدة الشديدة، أكاد أجنّ في بعض الأحيان، أشاهد التلفزيون طوال اليوم وآكل كثيرا، أنا ألتهم كمّيات معتبرة من الشوكولاطة يوميا. كما ترون أنا سمينة جدا، أريد أن أخفض وزني لكن الظروف الحالية لا تساعدني، لكن لا بأس مسألة تخفيض الوزن مسألة هينة، عندما أتزوج وأشعر بالراحة النفسية سينخفض وزني من تلقاء نفسه. لقد منعوني من استضافة أصدقائي في البيت بعد شكاوى الجيران، الحقيقة أن البوابة الملعونة هي التي وشت بي لدي السِنيُورة باوْلا ابنة العجوز رُوزا بذريعة أنني أجلب رجالا إلى البيت وأقضي معهم كل الليل ولا أعتني بالعجوز المريضة. ثم حمّلوني مسؤولية تعطّل المصعد بحجة أن وزني يفوق طاقة المصعد المسكين! قالوا لي: "خفّضي وزنك أولا ثم استعملي المصعد!".

- . . . ؟

هل من العدل أن أُمنع من استعمال المصعد بينما يسمحون لكلب السِنيُورة فَانْيانِي التبوّل فيه؟ هذا الكلب أسعد مني، إنه يخرج من البيت أكثر من عشر مرات في اليوم، يصول ويجول في حديقة ساحة فِيتُورْيو كأنه أمير صغير أو طفل مدلل، أما أنا فلا أستطيع أن أغادر البيت ولو دقيقة واحدة لأن السِنيُورة رُوزا

تعاني من مرض القلب، ماذا يحدث لو توقّف قلبها عن الخفقان وأنا غائبة عن البيت؟ لا أريد أن أفكّر في العواقب. أنا أغار من هذا الكلب الصغير، تمنيت مرارا أن أكون في مكانه. هل أنا إنسان؟ في بعض الأحيان أشك في إنسانيتي. لا أملك حتى الوقت الكافي لحضور قداس الأحد أو الوقوف بين يدي أحد القساوسة للاعتراف والتكفير عن ذنوبي. هكذا ستحل عليّ اللعنة وسيكون الجحيم في انتظاري في العالم الآخر!

- ؟ . . .

السِنيُور أَمِدِيُو قاتل! هذا شيء لا يقبله العقل. أنا متأكدة من براءته. ثم كيف يتهمونه بأنه مهاجر؟ هل الهجرة جريمة؟ أنا لا أفهم لماذا يكرهون المهاجرين بهذا الشكل، كان رئيس بيرو السابق ألبرتو فوجِيمُوري مهاجرا من اليابان! ما أكثر الأكاذيب التي نسمعها في التلفزيون عن المهاجرين، لكن رغم ذلك لا أستطيع الاستغناء عن التلفزيون. ذات مرة تعطّل التلفزيون، فأحسست بيدي ترتجف وقلبي ينبض بسرعة، اتصلت بالأبناء الأربعة للسِنيُورة رُوزا بالتتابع وطلبت منهم الحضور على عجل، ظنوا أن أمهم فارقت الحياة، حتى أن السِنيُور كارْلو اتصل بإحدى الوكالات التي تتكفل بالدفن قبل الحضور إلى البيت، عندما وصلوا وجدوني في حالة يرثى لها. كانت السِنيُورة رُوزا بجانبي تطلب مني الكف عن البكاء. استجمعت ما تبقى لي من قوة وقلت لهم: "لن أبقى هنا دقيقة أخرى إذا لم تصلحوا هذا التلفزيون في الحال". قامت السِنيُورة لاوْرا واتصلت بزوجها لإحضار تلفزيون جديد. غادر الأبناء الأربعة وزوج السِنيُورة

لاورا البيت بعد أن تأكدوا أنني على ما يرام إذ رأوني منهمكة في متابعة حلقة جديدة من مسلسل "بيوتيفول" (Beautiful) على القناة الرابعة. التلفزيون هو الصديق والأخ والزوج والابن والأم ومريم العذراء. التلفزيون كالهواء تماما، هل يستطيع الإنسان أن يعيش بلا هواء؟

- ... ؟

أنا أشاهد المسلسلات المكسيكية والبرازيلية يومياً وأعرف أدق التفاصيل عن حياة الممثلين. لا داعي للقول أن الحلقة الأخيرة من المسلسل تُدخل الحزن إلى قلبي كأنني أشيّع أمي إلى مثواها الأخير. لا أعتبر نفسي مجرد متفرجة وإنما بطلة لها دور مهم في قصة المسلسل، كثيرا ما أصرخ في وجه بعض الممثلين لتقديم النصيحة: "حذار يا مارينا، إن ألِخانْدرو لا يحبك، إنه مخادع، يريد أن يستولي على أموالك ويطردك من قصر والدك!" أو "فاتحها في الموضوع يا بابْلو، قل لها أنك تحبها وتريد أن تتزوجها" أو "لا تعاملي زوجك بقسوة يا كاتِرينا، سيرتمي في أحضان عشيقته الجديدة سُوزانا". في أغلب الأحيان أشعر بالتضامن مع الفقراء والمساكين والمقهورين، أقوم من الأريكة وأتقدّم تجاه التلفزيون وأحدّق في وجه الشرير أو الشريرة قائلة: "من تحسب نفسك يا وغد، ستلقى جزاءك يا مجرم، إن الخير سينتصر في النهاية!" أو "كم أنت حقيرة يا كارولينا، لماذا تسيئين إلى الطفلة اليتيمة؟ اللعنة عليك، أنت تستحقين الجحيم" أو "لن تنعم بالراحة يا خوليو، أنت مجرم وستنال جزاءك على يد الشاب الوسيم ألفونسو رودريغز!".

- . . . ؟

بالأمس شاهدت برنامجاً تلفزيونياً على القناة الثالثة حول العقم، لم أكن أعرف أن القلق يسبّب العقم. قلت لنفسي مواسية إن للإجهاض بعض المحاسن: الإجهاض هو طريقتي الوحيدة للتأكد من السلامة من العقم. هذا يعني أن الأمل قائم وسيكون لي يوما ما أبناء وزوج وبيت وسيكون وزني كوزن عارضات الأزياء مثل كْلوْديا شِيفر وإِيفا هِرْزيكوفا وناوْمي كامْبل ولِتِزْيا كاسْتا وزوجة الممثل ريشارد جِير التي لا أذكر اسمها الآن. لا يُستبعد أن أصير ممثلة مشهورة في المستقبل القريب، خصوصا بعد أن ألحّ الشاب الهولندي عليّ كثيرا للمشاركة في فيلمه القادم. قلت له إنني لا أملك وثيقة الإقامة لكنه لم يكترث. ثم طلبت منه بعض الوقت لتخفيض وزني، فغضب مني وصرخ في وجهي: "أنا أكره سينما هوليود لأنها لا تنطلق من الواقع، لا تخفضي وزنك، إن السمنة تزيد في جمالك". بعد أن هدأت أعصابه، اعتذر برقة ورومانسية وأضاف قائلا: "أنا ضد كل أشكال الكاتِناشُو (Catenaccio)!". لم أفهم معنى كلماته ورحت أسال نفسي بإلحاح: ما معنى "الكاتِناشو"؟ سمعت في العمارة من يقول إن الأشقر مجنون، لكن هذا الأمر لا يهمني، فأنا لن أتزوجه وأنجب منه أطفالي، ما يهمني حقاً هو أن أصير ممثلة مشهورة. عندئذ من يجرؤ على منع السِنْيُورة ماريا كريستينا غونزاليز الرشيقة والجميلة والمتزوجة وأم أمِدِيُو الصغير (Amedeo Jr) من استعمال المصعد؟!

العواء الخامس

السّبت 23 ماي: 22,55

قرأت اليوم مقالا في صحيفة "الكوزييرِي دِلا سِيرا" عنوانه مثير: هل الإيطالي مثل الديناصور؟ ويتناول مشكلة انخفاض الولادات في إيطاليا، وهي من أخفض النسب في العالم. قال كاتب المقال إن الإيطالي سينقرض في القرن التالي والخلاص الوحيد هو قدوم المهاجرين أو عقد صفقة مع السلطات الصينية لاستيراد البشر. ما أكثر عدد الشيوخ في هذا البلد!

الأحد 26 أكتوبر: 23,29

رأيت اليوم ماريا كريستينا في محطة تِرْمينِي برفقة الكثير من أهل بلدها، بدت لي مسرورة. إنها كالسمكة التي تعود إلى الحوض بعد احتضار قصير بعيدا عن الماء. هذه البنت تثير الشفقة، إنها لا تبرح البيت إلا دقائق قصيرة للتسوق، إنها تعاني من وحدة فظيعة بين أربعة جدران.

الأربعاء 23 جوان: 21,58

شاهدت في التلفزيون هذا المساء فيلماً جميلاً للممثلين ألبِرْتو سُورْدي وكْلاوديا كارْديناليِ، تدور أحداث القصة حول مهاجر إيطالي اسمه أَمِدِيُو يعمل في أستراليا. حياة المهاجرين الإيطاليين في الماضي تشبه إلى حد بعيد حياة المهاجرين الأجانب في إيطاليا اليوم. للمهاجر وجه واحد عبر التاريخ رغم اختلاف لسانه ودينه

ولون جلده.

الثلاثاء 26 أكتوبر: 23,44

غدا ستذهب ماريا كريستينا للمستشفى للإجهاض، هذه ليست المرة الأولى، سْتِيفانيا مصيبة عندما تقول إن ماريا كريستينا ستدخل سجل غينيس للأرقام القياسية نظرا لعدد المرّات التي أجهضت فيها. إنني أتساءل: هل أمارس أنا أيضا حرفة الإجهاض؟ نعم أنا أعشق هواية إجهاض الحقيقة. العواء هو إجهاض الحقيقة. أوووووووووووووو...

الخميس 3 جوان: 22,09

قرأت هذا المساء مقالا للفيلسوف كارل بوبر حول مكانة التلفزيون في حياتنا اليومية. يرى بوبر أن التلفزيون صار عضوا في الأسرة، له صوته المسموع الذي يتجاوز صوت الأب والأم والجد والجدة بل صوت العائلة بأكملها. قالت لي ماريا كريستينا في إحدى المرات: "التلفزيون هو عائلتي الجديدة".

السّبت 20 أفريل: 23,52

تشاجرت هذا المساء مع لُورانْزو مانْفرِيدِي. قلت له أن يبتعد عن ماريا كريستينا ويتركها وشأنها. هذه المسكينة تعيش في سجن موحش. فكرت في الاتصال بالمفتش بيتاريني لكنني خفت أن أسبب لها بعض المشاكل بسبب عدم امتلاكها وثيقة الإقامة. هذا المنحرف لا يستحق كنية "الغْلاذياتور"، هذه إهانة في حق سبارْتاكوس محرر العبيد!

حقيقة أنْطُونْيُو مارِيني

هذا الصباح انتظرت الأوتوبيس رقم 70 نصف ساعة في محطة شارع جُولِيتي القريبة من ساحة فِيتُورِيو، في غضون دقيقة أو دقيقتين وصلت ثلاثة أوتوبيسات بالتّتابع، نزل السائقون دون أن يكترثوا لاحتجاجات المنتظرين بل قصدوا البار المقابل للمحطة وجلسوا على الطاولة الخارجية لشرب القهوة والثرثرة وتدخين بعض السجائر! بقينا نصف ساعة أخرى ننتظر انطلاق الأوتوبيس، في النهاية قام السائقون من مقاعدهم كرجل واحد وتوجّه كل واحد منهم إلى مقعده، وانطلقوا دفعة واحدة! قولوا لي: هل نحن في مقديشو أم في أديس أبابا؟ هل نحن في روما أم في بومباي؟ هل نحن في العالم المتقدّم أم في العالم الثالث؟ أين نحن؟ عمّا قريب سنُطرد من نادي الدول المصنّعة.

- . . . ؟

هذه الأشياء لا تحدث في الشمال. أنا من ميلانو ولست متعوّدًا على هذه الفوضى. في ميلانو احترام المواعيد شيء مقدس ولا تجد من يقول لك مثلا: "نلتقي ما بين الخامسة والسّادسة!" كما يحدث في روما كثيرا. من عادتي في هذه الحالة الرد بحزم: "نلتقي في تمام الخامسة أو في تمام السّادسة!" هل يُعقل أن يتلاعب الناس بالمواعيد مع قولهم إن الوقت ثمين كالذهب؟ لم

يكن قرار ترك ميلانو والقدوم إلى روما قرارا صائبا. لقد رضخت لضغوط والدي: "يجب أن تذهب إلى روما يا أنْطُونيُو، يجب أن لا تفرّط في فرصة عمل تتاح لك، العمل عبادة يا بني!". هكذا قبلت بمنصب معيد في معهد التاريخ بجامعة روما، ظننت أنني سأبقى سنة أو سنتين على أكثر تقدير ثم أعود إلى ميلانو لكني قبلت بالأمر الواقع إثر ترقيتي إلى رتبة أستاذ محاضر. الآن أنا مقبل على التقاعد. كم أنا نادم على السنوات التي قضيتها هنا.

- ... ؟

روما! المدينة الخالدة! روما الجميلة! روما الحب! أنا آسف! أنا لا أرى روما بعين السائح الذي يأتي إليها أسبوعا أو أسبوعين يطوف على ساحة نافُونا وساحة دي سْبانْيا وفُونْتنا دي تْرِيفي، يلتقط بعض الصور التذكارية، يأكل البيتزا والسْباغِيتي ثم يعود إلى بلده. أنا لا أعيش في جنة السياح وإنما في جحيم الفوضى! بالنسبة لي لا فرق بين روما ومدن الجنوب كنابولي وبَلِرْمو وباري وسيراكوزا! روما مدينة جنوبية ولا علاقة لها بميلانو أو طورينو أو فلورنسا. أهل روما كسالى، هذه هي الحقيقة التي لا يمكن المفر منها: يعيشون من خيرات السياحة باستغلال الآثار الرومانية والكنائس والمتاحف والشمس التي تسحر سياح أوروبا الشمالية. تصوّروا روما بلا الكُولِيسِيُو وقبة سان بْيَتْرُو وفُونْتَانا دِي تْرِيفِي ومتحف الفاتيكان، إنها لا تساوي شيئا على الإطلاق. الكسل هو قوتهم اليومي، يكفي أن تستمع إلى الدارجة التي يستعملونها في تخاطبهم، يحذفون حروف الكلمات بدافع الكسل، أنا أغضب عندما يناديني زملائي في الجامعة "أنْطُو"، وأردّ دائما بعصبية:

"اسمي أنطُونيُو!". يكفي أن تشاهدوا أفلام الممثل ألبرتو سوردي مثل الكُونْت ماكْس أو المركيز دَلْ غرِيلُو أو بورجوازي صغير جدا لاكتشاف الوجه الحقيقي لأهل روما. إنهم يفتخرون بعيوبهم ولا يجدون حرجا في التعبير عن إعجابهم بالمرأة التي تخون زوجها أو بالشخص الذي يتهرّب من دفع الضرائب وبالمنحرف الذي يركب الأوتوبيس بلا تذكرة!

- . . . ؟

أليست الذئبة هي رمز روما! أنا لا أثق أبدا في أبناء الذئبة لأنهم حيوانات مفترسة متوحشة. إن الحيلة الخبيثة هي وسيلتهم المفضّلة في استغلال عرق الآخرين! هكذا أهل الشمال يعملون وينتجون ويدفعون الضرائب وأهل الجنوب يستغلون هذه الأموال في إنشاء العصابات الإجرامية مثل المافيا في صقلية ولاكامورًا في نابولي ولاندراغِتا في كلابْرِيا وعصابات الاختطاف في سَرْدِينْيا. المصيبة أن الشمال عملاق اقتصادي وقزم سياسي! هذه هي الحقيقة المرّة.

- . . . ؟

أنا أنصح دوما تلاميذي في الجامعة بقراءة متأنية وعميقة لكتاب كارلو ليفي الرائع " المسيح توقّف في إيبولي" لفهم حقيقة الجنوب القائم على الكسل والتخلّف. الوضع لم يتغيّر عن الماضي، العقلية هي نفسها لم تتغيّر. لن يفيد الهروب إلى الأمام؛ **حان الأوان للاعتراف أن الوحدة الإيطالية خطأ تاريخي لا يُغتفر.**

- . . . ؟

أَمِدِيُو مهاجر! بالنسبة لي لا فرق بين المهاجرين وأهل

الجنوب. لا أفهم علاقة أَمِدِيُو بالجنوب، أنا ملاحظ متمرّس، بإمكاني التمييز بين الكسول والمجتهد. مثلا البوابة النابوليتانية وسانْدْرو دَنْدِينِي وإِلِزابِتا فَابْياني هم رموز الجنوب المتمثّلة في الكسل والثرثرة والتخلّف والنميمة والإيمان بالشعوذة والبربرية. أنا لست عنصريا، يمكنني أن أذكر المؤرخ الكبير جُوسْتينو فوزْتونَاتو وهو من الجنوب إذ يقول إن مصيبة أهل الجنوب هي عدم إيمانهم بالغد، لذلك لا يغرسون ولا يزرعون أي لا يستثمرون.

- ...؟

عندما أخبرتني البوابة أن أَمِدِيُو من الجنوب، لم أصدّق لأن طريقته في الكلام والتحيّة والمشي أشبه بطريقة أهل ميلانو أو طورينو. لم أسأله عن أصله وفصله، فهذه أمور تخص حياته الشخصية التي لا يحق لي التدخّل فيها. سمعته مرة يقول: أنا من جنوب الجنوب! فاستنتجت أن روما هي الجنوب ومدن الجنوب الإيطالي مثل نابولي وبوتنزا وباري وبَلِرْمو هي جنوب الجنوب! التقينا صدفة عدة مرات في مكتبة معهد التاريخ بجامعة روما وتجاذبنا أطراف الحديث حول مختلف المواضيع المتعلّقة بالتاريخ الروماني واكتشفت أنه مطّلع جدا على الاستعمار الروماني في إفريقيا. رأيته يقرأ باهتمام شديد كتاب سالُوسْتيو "حرب يوغرْطا". ما شدّ انتباهي هو معرفته الجيدة بالقديس أوغسطين، لا شك أنه كاثوليكي أصيل، يؤمن بقيم الكنيسة المتمثلة في قداسة العمل والعائلة. كما أنه مطلع على الإنجيل، **لا أزال أذكر** نقاشنا الطويل حول الجملة الواردة في إنجيل متى: "وستجعله

الحقيقة حرا". لم يكن مقتنعا بأن الحقيقة تجعلنا أحرارا بل على العكس تماما قال إن الحقيقة هي قيد يجعلنا عبيدا. أعرف أنه مترجم، لم أسأله عن اللغات التي يعتمد عليها في عمله. لا أتصوّر أن يكون هو القاتل الحقيقي.

- . . . ؟

هناك فضيحة لا يمكن السكوت عنها: هل تعرفون أن سكان عمارتنا يبولون في المصعد! إنه أمر مؤسف حقا. لم نكتشف الفاعل بعد، الأمر الأكيد أن أَمِدِيُو بريء لأنه لا يستعمل المصعد ويفضّل السلالم. نصحته مرارا بتجنّب السلالم، فالصعود والنزول يسببان السكتة القلبية حسب دراسة قام بها أطباء معهد باستور لكنه لم يحمل كلامي محمل الجد. حاولت مرارا تنظيم اجتماعات تضمّ سكان العمارة لبحث المشاكل العويصة وعلى رأسها مشكلة المصعد. قلت لهم إن المصعد مشكلة حضارية، يجب أن نضع قواعد صارمة لاستعمال المصعد: ممنوع رمي بقايا السجائر، ممنوع الأكل، ممنوع كتابة الكلمات البذيئة، ممنوع التبوّل، الخ. اقترحت أن توضع لافتة على باب المصعد يُكتب عليها: الرجاء ترك المصعد نظيفا! لكن الاقتراح لم ينل موافقة الأغلبية بعد أن ترك الهولندي الأشقر فان مارْتن الاجتماع قائلا: "لا تصلح هذه اللافتة إلا على أبواب المراحيض العمومية!".

- . . . ؟

عطب المصعد كارثة كبيرة تدفعنا إلى استعمال السلالم من جديد، هذه إهانة في حق الحداثة والتقدّم والتنوير! سعيت

لإقناعهم مرات عديدة لكن دون جدوى، قلت لهم: "المصعد وسيلة حضارية تهدف إلى ربح الوقت وادخار الجهد، فهي لا تقل أهمية عن المترو والطائرة". أنا أرفض رفضا مطلقا المشي على الأقدام وتضييع الوقت في صعود ونزول السلالم. قرأت مؤخرا كتابا لأحد الباحثين الأمريكيين في علم الاجتماع حيث قال إن سلطات لوس أنجليس قرّرت التخلّص من الأرصفة في شوارعها لأن الناس لا يستعملونها. أنا أتساءل: متى سنتخلّص من السلالم!؟...

- ...؟

أَمِدِيُو شخص متناقض: يرتاد المكتبات للبحث والدراسة لكن يقضي ساعات في بار سانْدْرو، هذه عادة أهل الجنوب: الجلوس في البارات للثرثرة والنميمة والقيل والقال. ينبغي غلق البارات وإرغامهم على العمل. لم يكن أَمِدِيُو محظوظا؛ لو عاش في ميلانو لكان مصيره مختلفا على ما آل إليه. للأسف معاشرته لسانْدْرو أثّرت على طريقته في العيش بشكل سلبي، ألا يقال عندنا في الشمال: أسوء من ابن روما (Peggio di un romano).

- ...؟

حتى الطالب الهولندي فانْ مارْتن لم يسلم من هذه التأثيرات الثقافية والاجتماعية واللغوية، سمعته مرارا يتبجّح بلا حياء قائلا: أنا لست جَنْتِيلي! (Io non sono GENTILE!.) في البداية عذرته لأنه أجنبي ولا يتحكّم بالإيطالية كما يجب، فحاولت أن أصحّح هذا الخطأ اللغوي فأنا قبل كل شيء مدرّس ومربّ، انفردت به حتى لا أحرجه وقلت له بصوت منخفض: "لا تنطق

هذه الجملة ثانية لأنها تعني باختصار أنك عديم التربية وغير متحضّر، أي بربري!". نظر إليّ ببراءة مصطنعة قائلا: "أنا أعرف أن كلمة (GENTILE) في القواميس تحيل إلى لطيف ومهذب وظريف، ولكني أقصد معنى آخر". لم أطق سماع بقية تفسيره لأن مقامي كأستاذ جامعي محترم يمنعني من مجادلة طالب أجنبي يُحاججني في مسألة تتعلق باللغة الإيطالية!

- ...؟

أنا أقول إن هذا البلد غارق في بحر الغرائب، كأس العالم في كرة القدم على سبيل المثال هي مناسبة يكتشف فيها الإيطاليون أنهم إيطاليون. يضعون الأعلام الوطنية على النوافذ وفي الشرفات وأمام مداخل المحلات، يا للعجب كرة القدم تصنع الهوية! لا فائدة من الدين الواخد واللغة الواحدة والتاريخ المشترك والمستقبل المشترك. ما الفائدة من الوحدة الإيطالية؟ أين نحن؟ هل نحن بلد متخلف حقا؟ الرحمة والشفقة يا إلهي...

- ...؟

يجب أن أعترف أن امتناع أمِدِيُو عن استعمال المصعد والأوتوبيس والمترو وتعلّقه بالمشي جعلني أشك في انتمائه إلى تيار سياسي يفوق النازية والفاشية والستالينية خطورة ألا وهو تيار "الخُضر". أنا لا أتحرّج من تسمية دعاة حماية البيئة بالبرابرة الجدد لأنهم يسعون بكل الطرق إلى إيقاف عجلة التقدم والتكنولوجيا وإعادة البشر إلى كهف العصر الحجري، وذلك برفع شعارات تافهة كحماية الأشجار وإغلاق المصانع الكبرى ووقف الصيد ومقاطعة منتوجات نيسْتلي وماكدونالْدز! أنا أعرف

تاريخ هؤلاء البرابرة الجدد، ألست مؤرخا في جامعة روما؟ إنهم امتداد للثورة الطلابية عام 1968 التي فشلت فشلا ذريعا بعد أن اتخذت من الكتاب الأحمر لماوْ تْسي تونغ ومن مؤلفات هربرت ماركوز المعادية للتكنولوجيا منطلقا لها. سعى الكثير من هؤلاء الطلبة الفاشلين لامتطاء موجة الدفاع عن البيئة من أجل السلطة، أبرز دليل على ما أقول هو حصول زعيم الطلبة الفرنسيين السابق دانْيال كوهِين-بنْديت على مقعد في البرلمان الأوروبي ووصول "الخُضر" إلى سدة الحكم في ألمانيا! سألت أمِدِيُو سؤالا قصيرا جدا ورجوته أن يجيبني بنعم أو لا: هل أنت من أنصار "الخُضر"؟، أجاب دون تردّد: لا. حمدت الرب على مغفرته وفتحت باب المصعد لاعنا البرابرة القدماء والجدد!

- ...؟

لا تسألوني عن القاتل، أنا أستاذ جامعي ولست المفتش كولُومْبو! بالمناسبة هل تعرفون كيف كان يُلقّب الشاب المقتول؟ "الغْلاذياتور"! هذا دليل كاف على تخلّف أهل روما وتعلّقهم المرضي بالماضي. من المستحيل أن تجد في ميلانو من يُطلق على نفسه هذه الشهرة! هذا يحدث في الجنوب فقط.

العواء السّادس

الثلاثاء 4 ديسمبر : 23,08

في سهرة اليوم ذهبت مع سْتِيفانْيا إلى سينما تِيْبور الواقعة في سان لُورانْزو، شاهدنا فيلم "هكذا كانوا يضحكون" للمخرج جاني أمِلْيو. لقد استحق بجدارة جائزة أحسن فيلم في مهرجان البندقية ويتناول قصة المهاجرين الإيطاليين الذي تركوا مدنهم وقراهم في الجنوب وانتقلوا جماعياً إلى الشمال الإيطالي بحثاً عن لقمة العيش ومستقبل أفضل بعد الحرب العالمية الثانية. إن النهضة الصناعية وازدهار مصانع فِياتْ يعودان إلى سواعد عمال الجنوب. لا أفهم لماذا يتهم أنْطُونْيُو مارِيني سكان الجنوب بالكسل وعدم الإيمان بالغد؟!

الجمعة 4 جوان : 22,50

اليوم التقيت صدفة بالأستاذ أنْطُونْيُو مارِيني في مكتبة جامعة روما. تحدّثنا طويلا عن الإمبراطورية الرومانية وتناقشنا في قضية الاستعمار عموما. قلت له إن الشعوب التي خضعت للاستعمار عبر التاريخ تتحمّل مسؤولية كبيرة فيما أصابها. ثم رحت أفكّر في مصطلح "القابلية للاستعمار" للمفكر مالك بن نبي. هذه القابلية هي نتاج الخيانة الداخلية: خيانة الأخ لأخيه! اللعنة على الخائن بُوكُو الذي غدر بيوغرْطا وكل من اقتدى به،

والمجد والخلود لجدّي يوغرطا.أووووووووووووووووو. . .

الخميس 15 نوفمبر: 22,48

يشتكي أنطُونيُو كثيرا من سائقي الأوتوبيس، يقول إنهم لا يقومون بعملهم كما يجب، ينبغي إرسالهم إلى ميلانو للتعلّم من زملائهم هنالك. إنه يكرر دائما أن الوحدة الإيطالية جريمة في حق الشمال وأن الجنوب عبء ثقيل على كاهل أهل الشمال. لو كنت مؤمنا بالبوذية لقلت إن هذا الرجل قد تقمّص روح ديك الحي لأنه كثير الصياح!

الاثنين 9 أفريل: 23,44

سْتِيفانْيا محقة عندما تُلقّب أنطُونيُو مارِيني بشرطي المرور! من حسن حظي أنني لا أستعمل المصعد، لذلك أنا في مأمن من ملاحقته. هذا الرجل مصاب بداء جديد اسمه وباء المصعد وهو يشبه إلى حد ما جنون الاضطهاد. لا يكف عن التصريح بأن المصعد هو الحضارة، وأن الفرق الأساسي بين المتحضرين والبرابرة يكمن بالدرجة الأولى في الحفاظ على المصعد.

السّبت 12 أوت: 22,54

هذا المساء نصحني أنطُونيو مارِيني باستعمال المصعد، قال إن السلالم تسبّب السكتة القلبية وتؤدي إلى كسور متعدّدة. طلب مني المشاركة في الاجتماع القادم حول المصعد. نظر إليّ بتمعّن شديد وأمسك يدي قائلا: "أعرف أنك المتحضّر الوحيد في هذه العمارة، ساعدني في هذه المعركة ضد البرابرة الجدد". قلت له

إني سأبذل كل ما في وسعي لإقناع جميع سكان العمارة بأهمية الاعتناء بالمصعد.

الخميس 23 مارس: 23,49

سألني أنطونيو مارِيني هذا الصباح بإلحاح إذا كنت من أنصار "الخُضر" بسبب تجنّبي استعمال المصعد والأوتوبيس وتفضيلي للمشي. أجبته بالنفي، فتنفس الصعداء. قال لي إن دعاة حماية البيئة هم البرابرة الجدد وألدّ أعداء الحضارة لأنهم يريدون إيقاف عجلة التقدّم والبحث العلمي وإعادة الإنسانية إلى العصر الحجري. اختتم حديثة بالوصيَة التالية: "حذار من الخُضر، فهم أخطر بكثير من النازيين والفاشيين والألوية الحمراء والستالينين والخمير الحمر!".

الاثنين 2 مارس: 22,47

قرأت هذا الصباح كعادتي عمود الصحفي إنْدرُو مُونْتانِلي في صحيفة "الكُورْيِّري دِلا سِيرا" حيث تناول موضوع انفصال الشمال عن الجنوب الذي يدعو إليه حزب "رابطة الشمال". كتب مُونْتانِلي بصراحته المعهودة أن المشكلة الأساسية هي في تأسيس إيطاليا قبل تكوين الإيطاليين مما يفسّر هشاشة الوحدة الإيطالية التي فُرضت من طرف قلة رغم أنف الأكثرية. كلمات مُونْتانِلي جعلتني أفكّر جدياً في الخطابات الداعية إلى إدماج المهاجرين في المجتمع الإيطالي. إني أتساءل بصدق: هل هناك مجتمع إيطالي حقاً يسمح للمهاجرين بالانخراط في صفوفه؟ أنا لا

يهمّني الاندماج في الوقت الحالي، ما يهمني حقاً هو أن أرضع من الذئبة دون أن تعضّني وأن أمارس هوايتي المفضّلة: العواء! أووووووووووووووووووووووووووو...

حقيقة يُوهان فان مارْتَن

لم يكن والدي متحمّسا كثيرا لمشروعي، حاول إقناعي بشتى الطرق حتى أتراجع عن قراري: "دعك يا يُوهان من إيطاليا، لن تتعلّم شيئا من الإيطاليين، تذكّر أن هذا البلد هو الذي أبدع "الكَاتِناشُو" (Catenaccio)! كادت هذه الطريقة أن تقتل كرة القدم لو لم تبرز الكرة الشاملة التي بشّر بها الهولنديون وعلى رأسهم الغزال يوهان كْرُويِفْ". لا تزال كلماته الأخيرة عالقة في ذاكرتي وهو يودّعني في المطار: "تذكّر يا يوهان، صار فريق ميلان من أحسن الفرق الأوربية والعالمية بفضل الثلاثي الهولندي غُولِيت وفان باسْتن وريكارد وليس بأموال برلسْكوني!" لم يغفر لي والدي هذا العصيان فأصبح يناديني على سبيل السخرية والمزاح: جَنْتِيلِي (GENTILE) لأنني حسب رأيه لا أستحق اسم يُوهان لأنه يحيل إلى اللاعب الكبير كْرُويِفْ.

- ...؟

" جَنْتِيلِي" هي كلمة إيطالية تعني لطيف ومهذّب لكن في الواقع هو لقب اللاعب السابق في فريق يُوفنْتُوس والفريق الوطني الإيطالي الحائز على مونديال 1982 بإسبانيا ويتولّى في الوقت الحاضر تدريب الفريق الوطني الإيطالي "ب". كان كْلاوْديُو جَنْتِيلِي معروفا بخشونته ومراقبته اللصيقة لمهاجمي فريق الخصم. بالنسبة لوالدي جَنْتِيلِي هو العدو الأول لهذه اللعبة،

وكان على الفدرالية الدولية لكرة القدم "الفيفا" أن تمنعه من اللعب مدى الحياة عندما أرغم مارادونا على البكاء ومزّق قميص زيكو في مونديال إسبانيا. لهذا السبب تعوّدت على تبرئة نفسيي قائلا: "أنا لست جَنتِيلي (Io non sono GENTILE!)"، ولكن هل جَنتِيلي هو الصورة الحقيقة لإيطاليا؟

- ... ؟

جئت إلى روما لدراسة السينما وتحقيق الحلم الجميل الذي راودني منذ الصغر. أنا معجب بالسينما الإيطالية كثيرا، لا أخفي تعلقي بالواقعية الجديدة التي أحدثت قفزة نوعية في صناعة السينما وطرحت نفسها بديلا لسينما هوليود. أحب أفلام روسِليني ودي سيكا. "روما مدينة مفتوحة" لروبِرْتو روسلِيني و"سارقو الدراجات" لفيتوريو دي سيكا هما من أحسن الأفلام في تاريخ السينما، وقد صوّرت بعض مشاهد الفيلم الثاني في ساحة فيتوريو. هذا هو السبب الذي دفعني إلى اكتراء غرفة في العمارة التي يقيم فيها أَمِدِيُو في ساحة فِيتُورْيو.

- ... ؟

نعم لا أزال أذكر لقاءنا الأوّل، رأيته يخرج من بوابة العمارة متأبطا فيلم "الطلاق على الطريقة الإيطالية"، سألته عن اسم المخرج، فردّ قائلا: "بيتْرُو جِرْمِي، هذا الفيلم من أروع الأفلام الإيطالية". قلت له إنني أفضّل الواقعية الجديدة. عندئذ نظر إليّ مبتسماً: "هذا الموضوع يستحق جلسة في بار سانْدْرو". ذهبنا معا إلى البار وتناقشنا طويلا في أحوال السينما الإيطالية التي راحت ضحية العراقيل البيروقراطية. قال لي إن "الكوميديا على

الطريقة الإيطالية* هي أبرز ما أبدعته القريحة الإيطالية لأنها تفجّر التناقضات وتجمع بين التراجيديا والكوميديا، بين التهكم والنقد الجاد، بين الضحك على الآخرين والنقد الذاتي. يومها أدركت أن أَمِدِيُو شخص متفتح وليس من دعاة الكَاتِنَاشُو!

– ...؟

لا. الكَاتِنَاشُو في صلب الموضوع. ليس الكَاتِنَاشُو طريقة دفاعية محضة في كرة القدم فقط وإنما طريقة في التفكير والعيش تقوم على التخلّف والانغلاق وإحكام القَفْل جيدا. الأمثلة كثيرة جدا على شيوع ثقافة الكَاتِنَاشُو في روما. مثلا عقب احتفالات عيد الميلاد الأخير وعودتي من أمستردام، قررت أن أحمل بعض الهدايا لبعض الأصدقاء الإيطاليين، في محطة القطارات تِرْمِينِي أوقفني أعوان الشرطة وحملوني إلى مركز الشرطة للتحقيق معي، لم أفهم سبب هذا التوقيف، إذ ظننت أن ثمة خطأ ما. بحثوا في حقيبتي ووجدوا بعض الغرامات من الماريخوانا، قالوا لي:

– ما هذا؟

– هدايا لبعض الأصدقاء.

– هل تسخر منّا يا ابن الحرام؟

– لا. أنا أقول الحقيقة. لم أنتهك القانون.

– هل أنت مجنون؟

– هذه هدايا لبعض الأصدقاء وهذا وصل الشراء من بائع التبغ في أمستردام.

– أنت هولندي؟

– نعم.

– الآن اتضحت الأمور! روما ليست جنة المدمنين على المخدرات مثل أمستردام! المتاجرة بالمخدرات ممنوعة في إيطاليا. هل فهمت؟ الحيازة على غرامات من الماريخوانا جنحة يعاقب عليها القانون!

في نهاية المطاف أطلقوا سراحي بعد أن تعهّدت عن الإقلاع عن جلب المخدرات إلى إيطاليا والابتعاد كلياً عن تدخين الماريخوانا. لم أفهم بعد علاقة الماريخوانا بالمخدرات كالهروين. هل هناك وحدة أوربية حقا؟ هل هناك حرية التدخين والاعتقاد والتفكير في إيطاليا؟ هل إيطاليا بلد متحضّر؟ مصائبي مع الشرطة لم تنته عند هذا الحد. في إحدى الليالي قصدت شارع جْيُوبِرْتِي القريب من محطة تِرْمِيني حيث تنتشر بائعات الجنس، أعجبتني فتاة إفريقية واتفقت معها على الذهاب إلى غرفتها في فندق مجاور، بعد خطوات أوقفتني الشرطة وانهالوا عليّ بوابل من الأسئلة. قلت لهم بعد أن ضاق صدري: "أنا لا أفهم لماذا توقفونني، لقد دفعت لها المال المتفق عليه مسبقا، أنا لم أرتكب جنحة ضد القانون، أليس هذا الشارع هو الحي المخصص لبائعات الجنس على غرار حي الأضواء الحمراء في أمستردام؟ كدت أن أقضي تلك الليلة في السجن.

– . . . ؟

أَمِدِيُو أجنبي! هل يُعقل أن يكون الشخص الذي يمثّل إيطاليا العظيمة أجنبيا؟ إنه الوحيد الذي يجيب على أسئلتي المتعلّقة باللغة الإيطالية والسياسة والمافيا والطبخ والسينما، الخ. ثم لا يمكن أن أفهم اتهامه الغريب بمقتل الغْلاذياتور. أنا أعرف هذا

الأخير معرفة جيدة لأنني كنت أتقاسم معه شقته. كان يعشق الكلاب كثيرا، يكفي أن تلقي نظرة على أرجاء بيته لتشاهد مئات الصور الخاصة بالكلاب. إن من يحب الكلاب بهذا الشكل لا يستحق ميتة الأشرار بطعنة سكين قاتلة. أعرف أنه لم يكن محبوبا من طرف سكان العمارة بسبب تصرفاته الغريبة. كان يقول لي دوما: "أنا كلب متشرّد لا سيد لي!".

- ...؟

هل كانت هناك عداوة مسبقة بينه وبين أَمدِيو؟ لا أملك الجواب. أنا متأكد من شيء واحد: العثور على القتيل في المصعد يحمل دلالة معينة. أغلب المشاكل بين سكان العمارة سببها المصعد. كانت كل الاجتماعات المنعقدة تدور حول المصعد. ذات يوم ضاق صدري بها وصرخت قائلا: "هل تعرفون أن البرلمان الهولندي أقرّ مؤخرا قانونا يسمح للشخص بالانتحار؟ إنه أول قانون في العالم يبيح الموت الرحيم .(Euthanasia) بينما الشعب الهولندي يناقش بحماس هذا القانون الجديد، نحن نناقش قواعد استعمال المصعد!". أليس هذا هو التخلّف بعينه. تركت الاجتماع وانصرفت غاضبا. المصعد هو أصل المشكلة، ليس ثمة إجماع بين سكان العمارة لاستعمال المصعد، هناك من يريد تجهيزه بآلة التهوية في فصل الصيف وجهاز التدفئة في فصل الشتاء، هناك من اقترح وضع الصليب وبعض صور القديسين، هناك من رفض رفضا مطلقا إدخال هذه الإصلاحات الجديدة لتكاليفها المرتفعة. هذا المصعد سفينة يقودها أكثر من قبطان!

- ...؟

شيئا فشيئا بدأت أقترب من سكان العمارة مستعينا بمفاتيح الواقعية الجديدة، فاكتشفت أن المصعد هو موضوع جيد لفيلم واعد. فكرت في فيلم يمزج بين الواقعية الجديدة وسينما المخرج الألماني فاسْبِنْدر. ثم خطرت ببالي عناوين مدهشة: "صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فِيتُورْيو" أو "كاتِناشُو" أو "مصعد ساحة فِيتُورْيو" أو "صدام الحضارات على الطريقة الإيطالية". حلمت بإسناد دور البطولة للممثلة الألمانية آنّا شيغولاّ التي شاركت في معظم أفلام فاسْبِنْدر. قد يناسبها دور سيدة الكلب إلِزابِتا فانْياني مثلا. أنا معجب كثيرا بالإيراني بازْوِيز لأنّه يذكّرني بأنطوني كْوين في أفلامه الأولى. أما البوابة النابوليتانية بِنِدِتا فهي الشخصية المحورية في فيلمي القادم لأنها تمثل الواقع الشعبي كما كان الأمر مع الممثلة آنا منياني في فيلم "كامْبو دي فيوري". طلبت من أمِدْيُو مساعدتي في إقناع جميع سكان العمارة في التمثيل في الفيلم. أنا متحمس أكثر من أي وقت مضى لإنجاز هذا الفيلم بعد حدوث هذه الجريمة في المصعد. هذا إشهار أوّلي للفيلم. لن أتراجع وسأمضي في طريقي.

العواء السّابع

السّبت 7 نوفمبر : 23,43

اليوم تعرّفت على شاب هولندي اسمه يُوهان. إنه طالب يدرس السينما ومولع بالواقعية الجديدة. تناقشنا طويلا في واقع السينما الإيطالية ودافعت بشدة عن مذهب الكوميديا على الطريقة الإيطالية التي تناولت مواضيع جادة وحزينة في أغلب الأحيان في قوالب مضحكة. كم أنا معجب بفيلم بيِتْرو جيرْمي "الطلاق على الطريقة الإيطالية". أنا لا أمل من مشاهدة هذا الفيلم. تروي قصة رجل يخطط لقتل زوجته كي يتسنى له الزواج من شابة في مقتبل العمر. يقال إن هذا الفيلم مهّد الطريق أمام الاستفتاء حول الطلاق في إيطاليا عام 1974.

الجمعة 15 مارس : 23,55

ذهبت إلى سجن مامِرْتينو القريب من ساحة فِيتُورِيو لأول مرة، شعرت بارتعاش رهيب، في هذا المكان مات يوغرطا جوعا قبل ميلاد المسيح، قضى ستة أيام كاملة لم يذق الطعام والماء. اللعنة على الخونة، اللعنة على الأخوة الخونة. التقيت بالهولندي الأشقر عند عودتي إلى البيت، حدّثته طويلا عن يوغرْطا ومقاومته للرومان. قال لي: "إنك الإيطالي الوحيد الذي يعرف تاريخ روما. قصة هذا البطل الإفريقي تصلح لفيلم ملحمي

كبير مثل فيلم "سبارتاكوس" للمخرج ستانلي كوبريك".

الأربعاء 25 ماي: 22,53

طلب مني يُوهان أن أصبح دليله في روما. غدا سنذهب إلى كامبو دي فيوري حيث تم تصوير الفيلم الشهير مع آنا مانياني وألدو فابريزي. في وسط ساحة كامبو دي فيوري، أقدمت محاكم التفتيش عام 1600 على حرق جوزدانو برونو حياً. الآن هناك تمثال ضخم في هذا المكان المشؤوم يخلّد ذكرى الفيلسوف المأسوف عليه.

السّبت 30 نوفمبر: 22,39

ذهبت هذا المساء مع يُوهان إلى معهد غوته الألماني في روما لمتابعة الأيام السينمائية المخصّصة للمخرج فاسبِنْدر. شاهدنا فيلم "الآخرون ينادونه عَلِي Ali".. يروي هذا الفيلم قصة المهاجر المغربي "الهادي" الذي ينادونه علي وزوجته الألمانية وهي في سن والدته، يعيش البطلان أنواعا مختلفة من الضغوط الناتجة عن عداء وتكبّر بعض من يحيط بهما: الجيران وزملاء العمل وعائلة المرأة على وجه الخصوص. يصوّر فاسبِنْدر مأساة "علي" ببراعة إذ يتخبّط بين الحنين إلى الكُسكس وسعيه الفاشل لنيل رضى الألمان.

الاثنين 20 أفريل: 23,35

التقيت هذا المساء يُوهان فان مارتَن، كان كئيبا جدا بسبب العراقيل البيروقراطية أو عقلية الكَاتِناشُو ـ كما يسميها – لإنجاز فيلمه "صدام الحضارات حول مصعد في ساحة فِيتُورْيُو". قال

لي: "سيكون الفيلم ناجحا على كل مستويات، سأعتمد على تقنيات المسرح كوحدة المكان المتمثل في مدخل العمارة المقابل للمصعد وسأقنع سكان العمارة بتقمّص الأدوار كما هو الأمر مع أفلام الواقعية الجديدة، ستصبح بِنِدِتا مثل الممثلة المشهورة آنا مانياني!".

الجمعة 30 نوفمبر: 23,16

لا يزال الأشقر يُوهان مصمماً على إنجاز فيلمه حول سكان العمارة وتعلقهم بالمصعد. طلبت منه أن يعفيني من التمثيل لأنني لا أستعمل المصعد في الصعود والنزول. هذا المصعد هو ديكور لكابوس أراه في نومي من حين لآخر، بل هو قبر ضيق وبلا نوافذ.



حقيقة سانْدْرو دَنْدِينِي

أنا صاحب بار دَنْدِينِي المقابل لسوق ساحة فِيتُورْيو. أغلبية زبائني أجانب، أنا أعرفهم جيدا، بإمكاني أن أميّز بسهولة بين البنغالي والهندي، بين الألباني والبولوني، بين التونسي والمصري، مثلا الصينيون ينطقون حرف (L) بدل حرف (R) بينما المصريون ينطقون الحرف (B) بدل الحرف (P). كما ترون ليس من السهل إقناعي أن صديقي أمِدْ (Amed) ليس إيطاليا.

- . . . ؟

أَمِدْ (Amed) هو أَمِدِيُو (Amedo)! من عادتنا في روما حذف الحروف الأولى أو الوسطى أو الأخيرة من الأسماء، أنا مثلا اسمي سانْدْرو لكن اسمي الحقيقي أَلِسانْدْرو، أختي اسمها جيُوزيبِينا ولكننا نناديها جوزي، ابن أختي اسمه جُوفَانِي لكن الجميع ينادونه جانِي، ابني الوحيد اسمه فِيلِيبُو لكن تعودنا على مناداته بِيبُو، إذا الأمثلة لا تعدّ ولا تحصى.

- . . . ؟

تعرفت عليه عندما جاء للسكن في ساحة فِيتُورْيو، لا أزال أذكر لقاءنا الأوّل، طلب كابُوتْشِينو وكُرْنِيتُو وجلس على الطاولة وأخذ يتصفّح صحيفة "الكُورْيِيرِي دِلا سِيرا"، ثم رأيته يقرأ عمود الصحفي إنْدْرُو مُونْتانِلِي. لم أشاهد في حياتي كلها صينياً أو

مغربياً أو هندياً أو رومانياً أو غجرياً أو مصرياً يقرأ "الكُورْيّيرِي دِلا سِيرا"! المهاجرون يتصفحون فقط جريدة بُورْتا بُورْتِيزي التي تحتوي على إعلانات العمل. عندما همّ بالمغادرة قلت له إني معجب بمُونْتانِلي لشجاعته ونزاهته وصراحته ووقوفه الرائع في وجه الإرهابيين من الألوية الحمراء الذين أطلقوا عليه الرصاص متحدياً وصارخاً: "أنتم مجانين! عليكم اللعنة يا أبناء القحبة!". ثم رحت أعلّق على مقولته المشهورة: "الشعب الإيطالي لا يملك ذاكرة تاريخية". قلت له إن مُونْتانِلي مخطئ، فهذا الرأي ينطبق على كل أرجاء إيطاليا ماعدا روما، فأهل روما لهم ذاكرة راسخة ترجع إلى الرومان، يكفي أن تتجوّل في الشوارع لترى الآثار القديمة أو تنظر في علم نادي روما لتستمتع بصورة الذئبة وهي ترضع التوأمين رومولو وريمو. في النهاية تذكّرت نصيحة والدي عن كسب الزبائن، قلت له: "اسمي سانْدْرو وأنت؟". قال اسمي: "أَمِدْ"، قلت له: "إذا أنت من روما"، قال لي: "لا أنا من الجنوب". عندما بلغ عتبة الخروج قلت له: "إلى الغد يا أَمِدِيُو"، فردّ بابتسامة جميلة.

- . . . ؟

ترك أَمِدِيُو منذ اللقاء الأوّل انطباعا جيدا، لكنني لم أكن مرتاحا من إجابته: أنا من الجنوب! أنا لست عنصرياً لكنني لا أطيق النابوليتانيين، فتمنيت من أعماقي أن لا تكون لأَمِدِيُو علاقة بنابولي، لم أنس بعد الضرب المبرح الذي تعرضت له قبل سنوات من طرف أنصار نابولي بعد تعادلنا معهم في عقر دارهم. أنا أقول إنهم لا يستحقون لاعبا مثل مارادونا، ثم هل رأيتم ماذا

جرى للمسكين مارادونا؟! بعد أن جلب لهم ألقابا كثيرة، اتهموه بالتعاون مع المنظمة الإجرامية "لاكامورًا" ودفعوه إلى الإدمان حتى صار متعلقا بالكوكايين أكثر من الكرة! لو لعب مارادونا في نادي روما لصار مقدسا ومبجلا مثل البابا. أنا لا أتحرّج من التصريح بالقول التالي: "لا أثق في النابوليتاني حتى لو كان القديس جِنَارُو!".

- . . .؟

بدأ أَمِدِيُو يرتاد البار كل صباح، لا يفارقه الثالوث المقدَّس: كابُوتْشِينُو وكُورْنِيتُو وصحيفة "الكُورْيِيري دِلا سِيرا"! حاولت أن أحصل على تفاصيل عن أصله وفصله، وميوله الرياضية والسياسية، لم يكن أَمِدِيُو كثير الكلام مما صعّب مهمتي. ما زاد الطين بلة أنني لا أجيد لعبة اللف والدوران، وسرعان ما نفد صبري فبادرته قائلا: اسمح لي يا أَمِدِيُو، أريد أن أطرح عليك سؤالين قصيرين وأرجو أن تجيبني بنعم أو لا:

السؤال الأوّل: هل أنت من نابولي؟ قال: لا.

السؤال الثاني: هل أنت من أنصار لاتْسيو؟ قال: لا.

تنفست الصعداء واحتضنته كما يفعل أنصارنا عندما يسجّل نادي روما هدف الفوز في الوقت الضائع وأقسمت أن لا يدفع الحساب ذلك اليوم.

- . . .؟

بعد أن تأكدت من أنه ليس من نابولي ولا يناصر لاتْسيو فتحت له قلبي على مصراعيه وصرنا صديقين. ثم تعمّقت العلاقة أكثر عندما اشتريت شقة في نفس العمارة التي يسكن فيها أَمِدِيُو.

لم أسأله أين ولد ومتى جاء إلى روما، مع مرور الوقت اكتشفت أنه يعرف روما أكثر مني، لا شك أنه جاء إليها صغيرا كما حدث مع جدي عندما غادر صقلية قبل قرن واستقر في روما. بعد مدة وجيزة صار أَمِدِيُو من أنصار نادي روما، لا تفوته مقابلاتها في الملعب الأولمبي، الفضل يعود لي، فأنا مبشر مثل القديس بولس مع فرق بسيط: أنا أدعو إلى حب نادي روما أما هو فيدعو إلى حب الكنيسة! لكل واحد فريقه.

- . . . ؟

لا! لم يكن أَمِدِيُو مناصرا متطرفا، قرأت في إحدى الجرائد أن الغْلاذْياتور الذي وُجد مقتولا في المصعد كان مناصرا للاتْسيو واستنتج كاتب المقال أنه ينبغي البحث عن القاتل في أوساط مناصري نادي روما نظرًا للعداوة الكبيرة بين أنصار لاتْسيو وأنصار نادي روما! هل هذا سبب يدفع إلى القتل؟ نادي روما بريء من هذه الجريمة، أقصد أَمِدِيُو بريء من هذه الجريمة البشعة. أَمِدِيُو طيب وكريم، فهو طيب كالخبز كما نقول نحن في روما، يعطف مثلا على الإيراني ويساعده في العثور على العمل ويدفع له حساب المشروبات. ما يثير الانتباه هو تعلّق أَمِدِيُو بضربات الجزاء، إنه يفضّل ضربة الجزاء على الهدف! كان أَمِدِيُو يرتعش عندما يسدد اللاعب ضربة الجزاء، هذه المسألة حيّرتني كثيرا ولم أجد لها حلا.

- . . . ؟

أجد صعوبة في تصديق ما تقولون! أَمِدِيُو مهاجر مثل بازوِيز الإيراني وإقْبال البنغالي والخادمة السمينة ماريا كريستينا

وبائع السمك عَبْدُو والهولندي الأشقر الذي يضحكني كثيرا عندما يردّد كالببغاء: أنا لست جَنْتِيلِي! (Io non sono GENTILE!). أنتم لا تعرفون أَمِدِيُو كما أعرفه أنا، إنه يعرف تاريخ روما وشوارعها أكثر مني بل أكثر من ريكاردو نارْدِي الذي يفتخر بعائلته التي ترجع أصولها إلى العهد الروماني. ريكاردو سائق تاكسي، يقطع شوارع روما ذهاباً وإياباً كل يوم منذ عشرين سنة؛ إنه يعرف روما معرفة دقيقة. في إحدى الأيام تنافس أَمِدِيُو مع ريكاردو في معرفة شوارع روما، بدأت أطرح عليهما أسئلة سريعة كمقدم المسابقات التلفزيونية، مثلا أين يقع شارع السانْدْرو فيرونيزي؟ أين يقع شارع فالسولدا؟ كيف تصل من ساحة دل بوبولو إلى شارع سبارتاكو؟ أين تقع ساحة تريلُوسا؟ أين تقع وزارة الخارجية؟ أين تقع سفارة فرنسا؟ أين تقع سينما مِنْيون؟ كان أَمِدِيُو يجيب قبل ريكاردو. أما معرفة أَمِدِيُو بتاريخ روما، فحدّث ولا حرج؛ فهو يعرف سبب تسمية الشوارع ومدلولاتها. لم أر في حياتي كلها شخصا مثله. ذات مرة وعقب هزيمته المتكررة أمام أَمِدِيُو، قال له ريكاردو ضاحكا:
"أنت تعرف روما كما يعرف الرجل ثدي زوجته، بل أنت رضعت من ثدي الذئبة، لذلك تستحق أن تتوسّط التوأمين رُومُولُو ورِيمُو في حضن روما يا أَمِدِيُو!".
- ...؟

لا تقولوا إن أَمِدِيُو مهاجر، هذه المسألة تجلب الصداع إلى رأسي. أنا لا أحقد على الأجانب: ألم يكن لاعب نادي روما الكبير فالْكاو أجنبيا!؟ ألم يكن سِيرِيزو وفُولر وليندهُولم

وإيريكْسون وهاسْلر أجانب!؟ هؤلاء الأجانب صنعوا مجد نادي روما ويستحقون التبجيل والتقدير والاحترام. هناك فرق شاسع بين روما ونابولي، بين روما وميلانو، بين روما وطورينو. نحن نعامل المهاجرين بمحبة وتسامح. أنا لا أحب أهل الشمال لأنهم يتحكّمون في ثروات البلد ويحتكرونها. أولاد الحرام، لا يفكرون إلا في مصالحهم. خذ مثلا أَنْطُونْيُو مارِيني الذي يعامل سكان العمارة كأطفال الحضانة أو كأفراد قبائل الزُولُو. لا يكف عن توجيه الإرشادات وإلقاء الأوامر. جاء من ميلانو ليدرّس في جامعة روما كأن روما مدينة الحمير لا تنجب أساتذة جامعيين، أولاد القحبة يتقنون جيدا أصول المحسوبية وفن الوساطات. إنهم مصابون بمرض التسلّط وفرض إرادتهم على الآخرين.

- ...؟

سعى أَنْطُونْيُو مارِينِي بشتى الوسائل لمنعنا من استعمال المصعد واحتكاره لنفسه إذ تقدّم باقتراحات غريبة، قال إنها لتحسين وضعية خدمات المصعد: غلق باب المصعد بالقَفْل، منع الزوار والضيوف من استعماله، منع التدخين والبصاق في المصعد، تنظيف الأحذية من الأوساخ قبل الدخول في المصعد، وضع مرآة ومقعد يتّسع لشخصين، الخ. قلت له في إحدى الاجتماعات بعد أن تأجّج الدم في عروقي: "هذا المصعد ملكنا جميعا وليس جزءا من بيتك، هذه عمارتنا وليست قبيلة الزُولُو! اذهب إلى ميلانو وافعل ما شئت!". لم يصمت وأخذ يهذي بكلمات من الدارجة الميلانية: "لن أصير واحدا منكم أيها البرابرة، سأدافع عن الحضارة في هذه العمارة ما دمت حيا،

المصعد هو الفاصل بين الهمجية والحضارة!". ينبغي أن يُودَع في السجن بتهمة القذف والسب أو على الأقل يُطرد خارج أسوار روما ويُمنع من الدخول إليها من جديد. إن فضائح أهل الشمال لا تنتهي أبدا، فقد فضحتهم عملية "الأيادي النظيفة" (Mani pulite) التي قادها القضاة وأزالت الستار عن الرشوة المستشرية في مدن الشمال وعلى رأسها مدينة الفساد ميلانو. بعد كل هذا تجد من يسأل: لماذا فاز نادي روما ببطولتين فقط بينما حصدت ميلان وإنْتر ويُوفنتُوس معظم الألقاب داخل إيطاليا وخارجها؟ الجواب بسيط: الرشوة.

- ...؟

أنا لا أوافق على وصف كرة القدم بأنها مجرّد لعبة للتسلية وتمضية للوقت! كرة القدم هي مدرسة تعلمك الجد والصبر والمثابرة وحب الفوز والمقاومة إلى آخر ثانية. هل تذكرون اللقاء النهائي بين بايرن ميونخ ومانشستر يونايتد لنيل كأس رابطة أبطال أوروبا؟ كان البايرن متفوقا بهدف لصفر إلى غاية الدقيقة الأخيرة غير أن مانشِسْتر تمكن من تعديل النتيجة وإضافة هدف الفوز قبل أن يطلق الحكم تصفيرة النهاية! كثيرا ما تشاجرت مع زوجتي بسبب ابننا الوحيد بِيبُو، فهي ترى أنني أشجعه على ترك المدرسة، قلت لها: يا غبية، ألا تزالين تؤمنين بالمدرسة؟ ألا ترين ماذا يحدث في المدارس من قتل واغتصاب واحتجاز؟ ردّت متذرّعة أن كل ذلك يحدث في الأفلام أو في بعض مدارس السود في الولايات المتحدة! عندئذ قلت لها: تذكري يا عزيزتي أننا نستورد من الولايات المتحدة كل شيء، عمّا قريب

ستشاهدين على شاشة التلفزيون وعلى البث المباشر عمليات قتل داخل المدارس الإيطالية يقوم بها التلاميذ أنفسهم. ألم يحذّر علماء النفس في إيطاليا من انتشار ظاهرة الوحوش الصغار؟! من حقي أن أربيّ ابني كما أريد، أنا أدرى بمستقبله، ثم ألا يحصل لاعب كرة القدم على الملايير بينما يصطف المتخرجون من الجامعات في طابور البطالة! لا فائدة ترجى من المدرسة، فهي حقاً مضيعة للوقت.

-...؟

نعم. لا أنكر أنني تشاجرت مع الغْلاذياتور كما تشاجر معه كل سكان العمارة. كان يستفز الجميع بتصرفاته السيئة، كان لا يكف مثلا عن وضع رسومات إباحية وتدوين كلمات بذيئة والكيل بالشتائم الفظيعة ضد نادي روما داخل المصعد. حذرته مرارا لكنه استمر في عناده. أنا أقول وأكرّر: لا دخل لأَمِدِيُو بهذه الجريمة. أنا مقتنع تماما ببراءته ومستعد لأضع يدي على الجمر.

العواء الثامن

الخميس 27 مارس: 22,39

هذا الصباح تعرفت على صاحب بار دَنْدِينِي، اسمه سانْدْرو وهو في الأربعين. قال لي إن روما هي ذاكرة الإنسانية، إنها المدينة التي تعلّمنا كل صباح أن الحياة ربيع أبدي وإن الموت سحابة صيف عابرة، لقد هزمت روما الموت! لهذا السبب يطلق عليها اسم المدينة الخالدة. هناك شيء يستحق أن يذكر: عندما سألني سانْدْرو عن اسمي، قلت له: أحمد، فنطق اسمي دون حرف الحاء أي أمِدْ لأن الأبجدية الإيطالية لا تتوفّر على هذا الحرف، في النهاية ناداني باسم أَمِدِيُو وهو اسم إيطالي ويمكن أن يُختصر إلى "أمِدْ" بحذف الحرفين الأخيرين.

الجمعة 27 جانفي: 23,42

صرت من المؤمنين المتعصبين بالثالوث المقدّس: كابُوتْشِينُو وكورْنيتُو والكُورْنِيري دِلا سِيرا! أحب كثيرا الكُورْنيتُو وهو مثل كرواسُون محشوّ بالعسل أو المربى أو القشطة. صار بار سانْدْرو المحطة الأولى قبل الذهاب إلى العمل، علاقتي بكابُوتْشِينُو هي علاقة السيارة بالبنزين، هذا التزوّد ضروري للحفاظ على اللياقة طوال اليوم. قرأت هذا المساء في مجلة "إسْبْرِيسُو" مقالا لعالم نفس ينصح الناس بتغيير الأسماء من حين لآخر لأن ذلك يسمح

بخلق نوع من التوازن بين الشخصيات المتعددة التي تتنازع كل واحد منّا. قال إن تغيير الاسم يساعد على العيش أفضل لأنه يخفف من أعباء الذاكرة. إذا أنا في مأمن من انفصام الشخصية بسبب اسمي الإيطالي، لا ضرر من أَمِدِيُو، لكن هل هناك نزاع صامت بين أَمِدِيُو وأحمد؟ سأبحث عن الجواب في العواء: أوووووووووووووووووووووووو. . .

السّبت 25 فبراير: 23,08

يحلو كثيرا لسانْدْرو تقليد مقدّمي برامج التلفزة، غالبا ما أجد نفسي في مقعد المتنافسين، تدور الأسئلة حول شوارع روما وتاريخها. لم أكن أعرف أنني أملك كل هذه المعلومات عن روما، الفضل كل الفضل يعود إلى قدمي، أنا من هواة المشي، أكره المترو والأوتوبيس والسيارات والمصاعد، لا أطيق ازدحام الناس. أحب السير على القدمين حتى أستمتع بجمال روما على مهل، التسرّع هو عدو العاشق. أنا متسلّح بالصبر اللامحدود وأحلم أن أشرب من كل نوافر روما وأطأ كل شبر من أرضها!

الأحد 7 ماي: 23,37

اليوم ذهبت مع سانْدْرو إلى الملعب الأولمبي لمتابعة مباراة نادي روما ضد بارما. أنا لست مسرورا رغم فوز نادي روما بهدفين لصفر لأنني لم أشاهد ضربة جزاء. ما أجمل منظر اللاعب الذي يقف وجها لوجه مع حارس المرمى، رجل واحد ضد رجل آخر، إمّا منتصر أو منهزم، إمّا قاتل أو مقتول. ضربة

الجزاء هي ضربة الغْلاذياتور، الملعب الأولمبي يشبه إلى حد كبير الكُولُوسِيُو الذي كان يحتضن سبعين ألف متفرج قبل عدة قرون.

الأحد 4 جوان: 22,59

أخبرني سانْدرو أن أنصار نابولي لا يطيقون الملعب الأولمبي بسبب اللافتات الكبيرة التي يضعها أنصار نادي روما لاستقبالهم، مثلا في السنة الماضية بمناسبة اللقاء الكروي نادي روما ضد نابولي، تصدّرت المدرج الرئيسي اللافتة التالية: مرحبا بكم يا أنصار نابولي! مرحبا بكم في إيطاليا! إن أهل روما لا يرتاحون كثيرا للنابوليتانيين مثل البوابة بِنِدِتا.

الأربعاء 7 جويلية: 22,42

صباح اليوم سألت سيدة إيطالية سانْدرو عن شارع دي ريبيتا بينما كنت جالسا أحتسي الكابُوتْشِينُو، فاستنجد بي سانْدرو كالغريق، قلت لها إن المترو هو أحسن وسيلة للوصول بسرعة، ينبغي النزول في محطة فلامنيو المحاذية لساحة دَلْبُوبُولُو التي يتفرّع منها شارع دِي رِبِيتا. بعدها تذكرت ما قاله لي ريكاردو سائق التاكسي: "أنت رضعت من ثدي الذئبة يا أَمِدِيُو!". صرت أعرف روما كأني ولدت فيها ولم أغادرها أبدا. من حقي أن أتساءل: هل أنا لقيط مثل التوأمين رُومُولُو ورِيمُو أم ابن بالتبني؟ السؤال الجوهري هو كيف أرضع من الذئبة دون أن تعضّني؟ الآن على الأقل يجب أن أتقن العواء كذئب أصيل: أوووووووووووووووووووووووو...

السّبت 22 أكتوبر : 23,44

هذا الصباح حدثني سانْدرو عن مشكلة انخفاض الولادات في إيطاليا إذ يرى أن المسؤولية تقع على عاتق الحكومة التي لا تمنح التسهيلات والمكافآت لتشجيع إنجاب الأطفال. ثم أسهب في تحليل ظاهرة "الوحوش الصغار" أي الأطفال الذين يقتلون أولياءهم أو إخوانهم أو أقرانهم. في النهاية قال لي: "الاستثمار في الإنجاب تجارة كاسدة، الأبناء مثل أسهم البورصة عندما تتدنى قيمتها، لا تجد من يشتريها. لا أحد يستمع إلى توجيهات البابا الرامية إلى تشجيع النسل لأن التكاليف باهظة والمخاطر مرتفعة والفوائد قليلة".

حقيقة سْتِيفانْيا مسّارو

من هو أَمِدِيُو الحقيقي؟ يا له من سؤال غريب. لا يوجد أَمِدِيُو حقيقي وأَمِدِيُو مزيّف. هناك أَمِدِيُو واحد فقط: أَمِدِيُو المدهش الذي عشقني وعشقته. قرأت ذات يوم تعريفاً قصيرًا جدا للحب: الحب تضحية. لقد ضحى أَمِدِيُو بكل شيء من أجلي، إذ تنازل عن وطنه ولغته وثقافته واسمه وذاكرته. أراد أَمِدِيُو إسعادي بأي ثمن. تعلّم الإيطالية من أجلي وأحبّ الطبخ الإيطالي من أجلي وسمى نفسه أَمِدِيُو من أجلي، باختصار صار إيطاليا لإسعادي. صدّقوني لا مجال للمقارنة بين قصتي مع أَمِدِيُو وقصة حب (Love story) لبتريك سيغال!

- . . . ؟

أنا أعمل في وكالة سياحية في ساحة رِيبُوبْلِيكا منذ عشر سنوات، يعجبني كل ما له علاقة بالسفر، في طفولتي سافرت كثيرا برفقة أخي رُوبِرْتُو وأمي وأبي. لا تزال رحلتنا إلى الصحراء من أسعد الأسفار، أدهشني الطوارق كثيرا وتعلقت بهم كتعلّق الرضيع بثدي أمه، عندما حان وقت الرحيل، بكيت ورفضت العودة إلى روما، لقد رغبت في البقاء هناك إلى الأبد مثل إزابِيل إبرْهارْد. عملي في الوكالة لا يمنعني من تكريس بعض الساعات في الأسبوع للتطوّع كمدرّسة اللغة الإيطالية للمهاجرين.

- . . . ؟

طبعا أذكر ذلك جيدا، رأيته جالساً في المقعد الأمامي ينظر إليّ باهتمام بالغ، كان يتابع الدرس بتركيز شديد، لا أعرف لماذا ذكّرني بالصحراء. كان مدهشاً يجيب على كل الأسئلة بسرعة مذهلة:

- متى جئت إلى إيطاليا؟
- قبل شهر.
- هل درست الإيطالية في بلدك؟
- لا.

طوال سنوات تدريس الإيطالية للأجانب، لم أجد تلميذا نجيبا مثل أَمِدِيُو. هناك حادثة في غاية الأهمية يجب أن أرويها: بعد أسبوع واحد فقط من تعارفنا، حلمت كأني في خيمة في الصحراء وأنا في حضن رجل ملثّم، رفعت بصري وقلت له: "حبيبي فالِنْتِينُو!"، فردّ قائلا: "أنا لست فالِنْتِينُو"! نزعت عنه اللثام فرأيت وجه أَمِدِيُو. ثم راح يقبّلني ببطء، أحسست بحرارة شديدة كأن جسدي ممدد على الرمال الحارقة وقت الظّهيرة. كم كنت سعيدة! تمنّيت لو يدوم الحلم إلى الأبد. في اليوم التالي، عندما رأيته شكرته على تقبيل الليلة الماضية ثم رويت له الحلم كاملا، عندئذ قال لي: "ما أجمل أن يحقّق المرء حلمه بحذافيره أو ببعض أجزائه"، قلت له: "هل نذهب إلى الصحراء ونعتزل في خيمة جميلة ونحقق بقية تفاصيل الحلم؟" قال لي: "أحب أن أحقق حلمي بالتقسيط لا دفعة واحدة، مثلا يكفي أن أقبّلك الآن حتى أقتنع أنني وضعت قدمي في الحلم". أخذ يدي وقبلها ثم احتضنني برقة لا نظير لها. بعد أيام قليلة صارت غرفة نومي

خيمة جميلة وتحوّل الحلم إلى حقيقة...

- ...؟

طلبت من أَمِدِيُو بإلحاح أن يأتي للعيش معي في شقتي في بساحة فِيتُوزِيو، تردّد في البداية ثم وافق في النهاية. فكرت مرارا تغيير السكن والرحيل عن ساحة فِيتُوزِيو، أنا لا أطيق البوابة بِنِدِتا، فهي كثيرة الثرثرة والنميمة، خصوصا أنها تكرهني منذ الصغر، كانت تتهمني دائما بكل المصائب التي تحدث في العمارة كدق الأجراس من أجل إزعاج السكان أو ترك باب المصعد مفتوحا كأنني الطفلة الوحيدة في ساحة فِيتُوزِيو! لا أحب الأستاذ أنطُونيُو مارِيني لأنه مثل شرطي المرور لا يتوقف عن الأمر والنهي وتوزيع الغرامات يمينا ويسارا. لا أخفي عدم ارتياحي للجارة إلزابِتا فَابْيانِي، لم تتردّد هذه الغبية في إطلاق اسم معبود النساء فالِنْتِينُو على كلبها الصغير الذي لا يكف عن النباح في الليل كأنه ذئب البراري. في إحدى المرّات اتهمتني بالعنصرية، من يدافع عن حقوقه في هذا البلد يلصقون به نعت العنصرية! لا أعرف كيف لم تحمّلني مسؤولية اختفاء كلبها لحد الآن.

- ...؟

أعرف أن أَمِدِيُو يتقن الإيطالية أحسن من الإيطاليين، الفضل يرجع إلى إرادته وفضوله. لم ألعب دورا كبيرا في هذه المعجزة التي تنسب إليّ عادة. أَمِدِيُو عصامي، يكفي أن تعرفوا أنه كان يسمّي قاموس زِينْغارِيلي بالمِرْضعة! كان بالفعل كالرضيع الذي يتغذى من حليب أمه عدة مرات في اليوم. كان يقرأ

بصوت مرتفع ليحسّن قراءته ولا يتضايق عندما كنت أنبهه إلى بعض الأخطاء في النطق. كان لا يمل من مراجعة القاموس لفهم الكلمات الصعبة، كان بالفعل يرضع من الإيطالية كل يوم.

- . . . ؟

بعد ثلاثة أشهر فقط من تعارفنا قررنا الزواج، لماذا ننتظر؟ هو يحبني وأنا أحبه. قبل الزواج طلب مني أَمِدِيُو أن لا أسأله عن ماضيه، لا أزال أذكر كلماته: "حبيبتي، ذاكرتي كالمصعد المعطّل، بل الماضي كالبركان النائم، ساعديني على تجنّب إيقاظه الفظيع وحممه الجهنمية". قلت له: "أَمِدِيُو يا حبيبي أنا لا أريد منك الماضي وإنما الحاضر والمستقبل". الآن فقط أفتح عينيّ على الحقيقة التالية: لا أعرف من يكون أَمِدِيُو! من هو أَمِدِيُو قبل الاستقرار في روما؟ لماذا غادر بلده الأصلي؟ لماذا اختار روما؟ ماذا يُخفي في ذاكرته؟ ما سر الكوابيس التي تلاحقه؟ هناك غموض يلف حياته السابقة ربما هذا هو سر عشقي له. إن أجمل مراحل الحب هي مرحلة التعارف والغطس الجميل في بحر العشق دون الاهتمام بالتفاصيل وطرح التساؤلات المملّة.

- . . . ؟

أعترف أن علاقتنا لم تتجاوز عتبة التعارف التي تخلو من السأم والروتين. "العشق هو صندوق المفاجآت" هكذا يقول مطلع إحدى الأغاني الجميلة. إن عيب بعض العشاق هو محاولة معرفة كل شيء عن المعشوق، هذا هو سبب السأم وانطفاء شمعة الحب بسرعة. العاشق الحقيقي لا يكشف عن نفسه كليا. هل تعرفون لماذا يثير الطوارق الإعجاب والدهشة؟ لأنهم

ملثّمون. الغموض سر الآلهة! الأشياء المدهشة غامضة بالضرورة. أنا أشفق على صديقاتي وبعض النساء عندما أسمع قولهن: "أنا أعرف زوجي معرفة كاملة أو أنا أغار من خطيبي ولا تغفل عيني عليه لحظة واحدة! كثيرا ما أتساءل بحيرة عن علاقة العشق بتحقيق الشرطة واستجوابها؟ الحقيقة أنني أكره التفاصيل كرها لا نظير له لأنها ببساطة تمنعنا من الحلم والتخيل.

. . . ؟

هذا صحيح. لم يكن أَمِدِيُو يحب الماضي. في إحدى المرّات قال لي إن الماضي كالرمال المتحرّكة، إنه فخ لا فكاك منه. أَمِدِيُو مدهش كالصحراء، من الصعب الإلمام بأسرار الصحراء. سمعت مرة من فم عجوز في النيجر كلمات وضعتها كحلقة في أذني: "لا تثقي أبدا في دليل الصحراء، فهو كإبليس ملعون إلى الأبد لأن الصحراء لا تحب المتكبرين، من يدّعي معرفة خبايا الصحراء، فلينتظر العقاب القادم أي الموت عطشا، التواضع هي اللغة الوحيدة التي تفهمها الصحراء!". قبل سنوات تعرّفت على سائح من أيسلندا، أخبرني بشيء مدهش، قال لي إن الصيادين عندهم لا يعرفون السباحة لأن النجاة من الغرق لا تكمن في إتقان أصول العوم وإنما في الطاعة والخضوع والاستسلام الكامل للبحر. إذا لا فرق بين البحر والصحراء.

- . . . ؟

أنا لا أخجل من كوني لا أعرف أَمِدِيُو جيدا رغم السنوات التي قضيتها معه، فهو رحلة مفتوحة على مفاجآت مدهشة واكتشافات مذهلة. لقد عملت طويلا مع سياح من مختلف أرجاء

العالم، أستطيع أن أقول إن عيب السائح هو الرغبة الجامحة في معرفة واكتشاف كل شيء في أيام قليلة. كثيرا ما نصحت المسافرين بالتريّث وعدم الاستعجال، الرحلة الجميلة لا تنتهي أبدا لأنها تحمل في طيّاتها وعدا ببداية جديدة لرحلة قادمة. إنها كحكايات شهرزاد لا تنتهي أبدا وإنما تبدأ باستمرار.

- . . . ؟

كان أَمِدِيُو يعاني من آلام المعدة منذ أن عرفته، يقضي وقتا طويلا في المرحاض الصغير قبل الذهاب إلى السرير، أجرى تحاليل كثيرة لكن دون جدوى، كل الأطباء الذين فحصوه قالوا إن المعدة سليمة! كان من عادته البقاء بعض الوقت في المرحاض الصغير كل ليلة، يأخذ المسجلة الصغيرة لسماع الموسيقى، قال لي إن ذلك يهدئ أعصابه ويقلّل من تصلّب أمعائه. قرأت في إحدى المجلات العلمية أن الطبيب ابن سينا كان يعالج مرضاه بالموسيقى. كان أَمِدِيُو يعاني من الكوابيس من حين لآخر، لم أسأله عن محتواها لأن "الكابوس هو نافذة يتسلّل منها الماضي في ثوب السارق" هكذا يقول أحد الكتّاب الفرنسيين.

- . . . ؟

سمعته مرارا يتمتم أثناء النوم بكلمات غير مفهومة، في إحدى المرّات استيقظ من نومه مفزوعا وهو يردّد: بَجة! بَجة! بَجة! كان العرق يتصبب من جبينه كأنه فرّ من الجحيم. في اليوم التالي لم أقدر على كبت فضولي فسألت أَمِدِيُو عن مدلول كلمة "بجة" لكنه لم يرد ونظر إليّ بعتاب كأنه يريد أن يذكّرني بالشرط الذي اتفقنا عليه قبل الزواج: الماضي كالبركان، حذار من رفع

الغطاء عن الفوهة! بقيت كلمة "بَجة" عالقة في ذهني فحاولت أن أكتشف معناها. سألت بعض الزبائن العرب الذين يرتادون على وكالة السياحة عن معنى هذه الكلمة لكنهم لم يقدروا على فك ألغازها.

- . . . ؟

لا. أنا أقول لا علاقة بين مقتلِ لُورانزو واختفاء أَمِدِيُو. أنا متأكدة من أن أَمِدِيُو بريء من جريمة القتل. لا يوجد دافع واحد للإقدام على هذا الفعل الشنيع. لم يكن "الغْلاديّاتور" شخصاً محبوباً بين سكان العمارة، هذا معروف. لقد أساء للجميع دون أن يطلب العفو من أحد. ليس من العدل أن نسيء إلى أَمِدِيُو بهذا الشكل. اسألوا سكان ساحة فِيتُورْيو عن أَمِدِيُو، سترون كم كان محبوبا من طرف الجميع. لم يتأخر عن مساعدة المحتاج دون أن ينتظر أجرا من أحد. لقد تمكّن مثلا من إقناع البنغاليين بإرسال زوجاتهم إلى المدرسة.

- . . . ؟

لقد نجح أَمِدِيُو في مهمة صعبة. المدرسة النسوية هي فرصة للالتقاء وتبادل الحديث، إنها مناسبة للخروج من البيت بل هي ذريعة لمغادرة السجن، الذهاب إلى المدرسة ذريعة لفك الحصار على الفتيات البنغاليات. الكثير منهن يعانين من العزلة الشديدة، يفضلن البقاء في إيطاليا لأن تذكرة السفر باهظة الثمن. الكثير من البنغاليين يعودون إلى بلدهم مرة واحدة كل خمس سنوات أو أكثر. الكلام مفيد جدا للتنفيس عن الحزن والقلق والحنين وغياب الأحبة. الرجال منغلقون بشكل فظيع، كأنهم يعيشون في دكا،

يأكلون الأرز ويلبسون اللباس البنغالي ويشاهدون الأفلام البنغالية على أشرطة الفيديو. غالبا ما أتساءل: هل يعيشون حقاً في روما؟

- . . .؟

لا أعرف أين هو الآن، أخشى أن يكون قد أصابه مكروه. لا أزال أبحث عنه في كل مكان، أتمنى أن يكون بخير. هناك علامات استفهام كثيرة تحيط باختفاء أَمِدِيُو واتهامه بجريمة قتل بشعة. أنا متفائلة ومقتنعة ببراءته. سأدافع عنه دون هوادة.

العواء التّاسع

الأحد 4 جوان : 22,33

أنا رضيع أحتاج يوميا إلى الحليب، اللغة الإيطالية هي الحليب اليومي. سْتِيفانْيا هي الحياة أي الحاضر والمستقبل. أحب سْتِيفانْيا لأنها متعلّقة بالحياة، أعشق ذاكرتها الخالية من الكوابيس. أريد أن تصيبني بالعدوى: عدوى الحياة، عدوى الحب، عدوى المستقبل وعدوى العواء السعيد .أوووووووووووووووووو. . .

الاثنين 17 نوفمبر : 23,57

الكثير من الناس يعتبرون عملهم عقاباً يومياً. أما أنا فأحب عملي كمترجم كثيرا. الترجمة هي رحلة بحرية ممتعة من مرفأ إلى آخر. أحيانا أعتبر نفسي مهرّباً محترفاً: أعبر حدود اللغة محمّلا بالغنائم من كلمات وأفكار وصور واستعارات.

الأربعاء 29 سبتمبر : 23,09

مسكينة سْتِيفانْيا، فهي قلقة من أجلي، إذ تعتقد أنني أعاني من آلام المعدة. الحقيقة أن معدتي سليمة، المشكلة في معدة ذاكرتي التي لم تهضم جيدا ما تناولته قبل قدومي إلى روما. الذاكرة كالمعدة تماما؛ ترغمني من حين لآخر على التقيؤ. أنا أتقيأ ذكريات الدم دون توقف. إنني أعاني من قرحة معدية في

الذاكرة. هل من دواء؟ نعم: العواء! أوووووووووووووووو . . .

الأحد 9 مارس: 23,17

انتهيت اليوم من قراءة رواية أمين معلوف "ليون الإفريقي". أعدت قراءة المقطع التالي عدة مرات حتى حفظته عن ظهر قلب: "خُتنت أنا حسن بن محمد الوزان، يوحنا ليون دوميديتشي، بيد مزين وعمدت بيد أحد البابوات، وأُدعى اليوم "الإفريقي"، ولكنني لست من إفريقيا ولا من أوروبا ولا من بلد العرب. وأُعرف أيضا بالغرناطي والفاسي والزياتي، ولكنني لم أصدر عن أي بلد، ولا عن أي مدينة، ولا عن أي قبيلة. فأنا ابن السبيل". ما أجمل أن نتحرّر من قيود الهوية التي تقودنا إلى الهاوية! من أنا؟ من هو؟ من أنت؟ من أنتم؟ يا لها من أسئلة تافهة.

الخميس 18 نوفمبر: 22,51

سْتِيفانْيا في غاية الفرح والسرور بعد أن شرعت في تدريس الإيطالية للنساء البنغاليات. بالأمس قالت لي مازحة: "عمّا قريب سنؤسّس أول جمعية نسوية بنغالية في إيطاليا"!، قلت لها إننا لم نتفق على هذا! فضحكت وأردفت: " ألا تذكر كلمات الشاعر الفرنسي لويس أراغون: "إن المرأة مستقبل الرجل" (La femme est le future de l'homme). فأجبتها: "عمّا قريب سأسمي نفسي مجنون سْتيفانْيا!". أحب سْتِيفانْيا لأنها مستقبلي.

الخميس 2 فبراير: 23,13

شرعت اليوم في قراءة كتاب إميل سيُوران الذي يحتوي على أقوال مأثورة تدعو إلى التفكير العميق مثل قوله: "لا نسكن في

بلد وإنما نسكن في اللغة". هل اللغة الإيطالية هي مسكني الجديد؟ أوووووووووووووووووووووووووووو...

السّبت 24 أكتوبر: 22,45

لا تمل سْتِيفانْيا من مشاهدة فيلم "الشيخ" مع الممثل رودلف فالِنْتِينُو. رأيتها في بعض المرّات تبكي من شدة الانفعال والتأثر. ربما تذكّرت والدها الذي توفي غرقا في بئر للبترول في الصحراء الليبية قبل سنوات. كان والدها خبيرا في التنقيب عن البترول. تعتقد سْتِيفانْيا أن والدها ذهب ضحية كلمة ملعونة هي "خبير"، تقول دائما أن الصحراء لا ترحم من يتطاول عليها.

الخميس 24 جوان: 22,57

لا يزال الكابوس المشؤوم يلاحقني. قالت لي سْتِيفانْيا هذا الصباح أنني صرخت أثناء النوم وكررت عدة مرات اسم "بَجة" لا شك أنها تعني "بَهْجة". لم أرغب في إخبارها بتفاصيل الكابوس. ما الفائدة من إشراكها في لعبة الكوابيس؟ ذاكرتي جريحة تنزف، يجب أن أضمّد جراح الماضي في عزلة. يا للحسرة، صارت "بَهْجَة" تحضر في الكوابيس فقط ملفوفة بكفن ملطخ بالدم! آه يا جرحي المفتوح الذي لا يندمل أبدا! لا عزاء لي إلا العواء: أوووووووووووووووووو...

الأحد 30 مارس: 23,48

هذا الصباح أعدت قراءة رواية طاهر جاووت الموسومة "ابتداع الصحراء". استوقفتني طويلا هذه الجملة: "الناس

السعداء ليس لهم عمر ولا ذاكرة. إنهم لا يحتاجون إلى الماضي".
سأعوي بقية الليل بحثاً عن العزاء: أوووووووووووووووووووو
وووووووووووو. . .

حقيقة عبد الله بن قدّور

لماذا سمّى نفسه أَمِدِيُو؟ هذا هو السؤال الذي يحيّرني. اسمه الحقيقي أحمد وهو اسم عظيم لأنه اسم الرسول وقد ذُكر في القرآن والإنجيل. بصراحة أنا لا أحترم كل من يغيّر اسمه أو يتنكّر لأصله، مثلا أنا أعرف أن اسمي عبد الله، كما أعرف تمام المعرفة أنه اسم عسير النطق عند الإيطاليين رغم هذا أقسمت أن لا أُغيّره ما دمت حياً. لا أريد أن أعصي والدي الذي منحني هذا الاسم والله تعالى نهانا عن عقوق الوالدين وهي من الكبائر كالقتل والزنى وشهادة الزور وأكل مال اليتيم. حاول الكثير من الإيطاليين الذين أعرفهم إقناعي بتغيير الاسم وعرضوا عليّ مجموعة من الأسماء الإيطالية: ألِسانْدرو، فْرانْشِسْكو، ماسِمِلْيانو، غويِدُو، مازيو ولوكا وبْيَتْرو وغيرها من الأسماء لكني رفضت رفضاً مطلقاً.

- . . . ؟

المشكلة لم تنته عند هذا الحد، فقد عمد البعض إلى حيلة جد منتشرة في روما وهي حذف الجزء الأوّل أو الجزء الثاني من الاسم فصرت أسمع من يناديني: إمّا عبد أو الله! استغفرت ربي كثيرا لأنه يغفر الذنوب جميعا ما عدا الشرك. حاولت الاحتفاظ ببرودة دمي وشرحت لهم أن جميع البشر بما فيهم الأنبياء والرسل هم عبيد لله، لذلك فإن اسمي لا علاقة له بالعبودية

التي كانت منتشرة أيام كُونْتا كِينْتِي. هكذا وجدت نفسي بين نارين: إمّا الوقوع في فخ الشرك والعياذ بالله كلما سمعت من يناديني: "الله"! أو تحمّل إهانات كل من يدعوني: عبد! في النهاية عثرت على مخرج من هذا المأزق بفضل صديقي المصري مِتْوَلِّي الذي نصحني بإدخال تغيير طفيف على الاسم. قال لي إنه من عادة المصريين إطلاق اسم عَبْدُو على كل من يحمل اسم يبدأ بعبد مثل عبد الرحمان وعبد الكريم وعبد القادر وعبد الرحيم وعبد الجبار وعبد الحكيم وعبد الصبور وعبد السميع. فقبلت بهذا الحل تجنّبا للمشاكل التي ذكرتها من قبل. للأسف هناك من يطلق على نفسه بعض الأسماء والألقاب التي تطفح بالشرك، خذ مثلا إقبال البنغالي، قلت له مرارا أن لقبه "أمير الله" شرك بالله؛ لو كان يعرف اللغة العربية لأدرك أنه لا فرق بين "أمير الله" و"أمير على الله"! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!

- . . . ؟

لن أغيّر جلدي ولا ديني ولا لغتي ولا بلدي ولا اسمي مهما حدث. أنا فخور بنفسي، ليس مثل المهاجرين الذين يغيّرون أسماءهم حتى ينالوا رضى الإيطاليين. خذ مثلا التونسي الذي يعمل في مطعم "لونا" الواقع في محطة تِرْمِينِي، اسمه الحقيقي مُحْسَن لكنه أطلق على نفسه أو أطلقوا عليه اسم ماسِيمِلْيانُو! لقد قال الله في القرآن: "لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم". صدق الله العظيم. أنا لا أطيق كل من ينكر أصله. هل تعرفون قصة البغل الذي سئل عن والده فردّ أن الحصان خاله؟ هل تذكرون الغراب الذي أراد أن يقلّد مشي الحمامة بعد

محاولات فاشلة قرر العودة إلى مشيته الأصلية لكنه اكتشف أنه نسيها؟

- ...؟

أحمد هو ابن حومتي، أعرفه جيدا كما أعرف كل أفراد عائلته. كان شقيقه الأصغر فريد من أعز أصدقائي، كان رفيق الدراسة واللعب. كان أحمد شخصا محبوباً ومحترماً في الحومة. لا أذكر أنه تخاصم مع أحد رغم أن الاشتباكات بين أولاد الحومة أو بين أولاد الحومة وأبناء الحومات المجاورة عادة منتشرة بكثرة في أحياء الجزائر العاصمة. بدأت محنة أحمد عندما ماتت خطيبته بَهْجَة بنت الجيران. كان أحمد يحبها كثيرا منذ الصغر، خطبها مبكرا وأراد أن يتزوجها، لكن حدث ما حدث. بالمناسبة "بَهْجة" هو اسم يُطلق على الجزائر العاصمة.

- . . . ؟

ذات يوم ذهبت بَهْجَة إلى بُوفارِيك لتزور أختها، في طريق عودتها أوقف الإرهابيون الحافلة في حاجز مزيّف وأقدموا على ذبح كل المسافرين ما عدا الفتيات. حاولت بَهْجَة الهروب من قبضة المجرمين والنجاة من الاغتصاب، فأطلقوا عليها وابلا من الرصاص. لم يقبل أحمد بالأمر الواقع فقبع في البيت لا يغادره حتى اختفى وغاب عن الأنظار، وتكاثرت التفسيرات في الحومة: هناك من قال إنه تطوّع في الجيش بحثا عن الانتقام من المسلّحين الإسلاميين، وهناك من قال إنه التحق بالمسلّحين في الجبل حتى ينتقم من الدولة، وهناك من قال إنه اعتزل الناس وانظم إلى جماعة صوفية في الصحراء فهو يعيش ملثّما

كالطوارق، وهناك من قال إنه فقد عقله وصار يمشي عارياً في الشوارع، وقد أكّد أحد الجيران لأهله أنه تعرّف عليه في محطة القطارات في مدينة عنابة بينما كان داخل القطار المتوجّه إلى تونس. لم أفهم لماذا لم يقدّم أهله نداءً في الحصة التلفزيونية المشهورة "وكل شيء ممكن" التي تهتم بالمفقودين. ذات يوم سألت والدته خالتي فاطمة الزهراء عن أحمد فأجابتني باختصار: "إنه في الخارج". كلمة "الخارج" تحتمل عدة معان: خارج العقل أو خارج العاصمة أو خارج القانون أو خارج طاعة الوالدين أو خارج نعمة ربي. فضّلت عدم الإلحاح في السؤال وترك البئر بغطائه كما يقول المثل الشعبي...

- ...؟

رأيته في سوق ساحة فِيتُوزِيو حيث أشتغل بائعاً للسمك. ناديته أحمد! أحمد! لكنه لم يردّ، تظاهر بعدم معرفتي، في نهاية المطاف تعرّف علي! وحيّاني ببرودة شديدة أمام دهشة السيدة الإيطالية التي ترافقه، عرفت فيما بعد أنها زوجته. بعدها التقينا مرات عديدة في بار دَنْدِينِي، لم يكن متحمساً لمعرفة أخبار الجزائر. صرت لا أفاتحه في مواضيع تخص الجزائر حتى لا أُزعجه. لم أجرؤ على نصحه بالتخلي عن اسم "أَمِدِيُو" والرجوع إلى اسمه الأصلي "أحمد" وهو اسم الرسول صلى الله عليه وسلم. ألا يقال إن الرجوع إلى الأصل فضيلة!

- ...؟

كان أحمد أو أَمِدِيُو - كما تسمّونه أنتم - يعمل في المحكمة العليا بالجزائر العاصمة مترجماً من الفرنسية إلى العربية. كان قد

اشترى شقة في باب الزوار كي يعيش فيها مع بَهجَة بعد الزواج لكن المكتوب أراد شيئا آخر. كما ترون قصة أحمد سالمي بسيطة ولا تحتمل التعقيدات. الحقيقة غير ما تعتقدون. ليست هناك أسرارا خفية عن حياته الماضية قبل الاستقرار في روما.

- . . . ؟

أنا أعمل في بيع السمك منذ سنوات، لا أجد فروقا بين حياة السمك وحياة المهاجرين. هناك مثل يردّده الإيطاليون كثيرا: "الضيف مثل السمك بعد ثلاثة أيام يتعفّن". والمهاجر هو ضيف ليس أقل ولا أكثر، وكما أن السمك يؤكل طازجا ويُرمى في المزبلة إذا فقد لونه الأصلي، فإن المهاجرين ينقسمون إلى نوعين: هناك النوع الطازج الذي يُستغل في مصانع الشمال أو في حقول الزراعة في الجنوب أبشع استغلال، وهناك النوع المتجمّد الذي يملأ الثلاجات ويُستهلك عند الضرورة فقط. هل تعرفون كيف يُسمي جانفْرَانكُو ـ صاحب المحل الذي أعمل فيه - فتيات أوروبا الشرقية اللواتي يبعن أجسادهن مقابل مبلغ زهيد؟ السمك الطازج! (Pesce fresco!)

- . . . ؟

جانفْرَانكُو رجل تجاوز الستين ومتزوج وله أبناء أكبر مني سنا. هوايته المفضّلة التجوّل بسيارته قبل العودة إلى البيت ليلا في شارع أَبْيا فِكَيا الذي يعجّ بطوابير طويلة من فتيات من أوروبا الشرقية ومن نيجيريا لا تتجاوز أعمارهن العشرين بل بعضهن قاصرات. يقضي ساعة مريحة مع "السمكة الطازجة" ـ هكذا يسمي الفتاة المسكينة ـ قبل العودة إلى حضن زوجته التي يتهكَم

عليها مع أصدقائه بتسميتها "السمكة المتجمّدة"، والتي يحتاج المرء إلى "تسخينها" وانتظار ساعات قبل الانقضاض عليها. من عادة جانفرَانكُو أو الخنزير - كما يحلو لأصدقائه مناداته ـ الجلوس كل صباح مع رفاقه على عتبة المحل وعلى مرأى الزبائن لاستحضار تفاصيل مغامرة الليلة السابقة. كثيرا ما تُطلق ضحكات صاخبة متبوعة بتعليق ماجن تعوّدت على سماعه: أنت خنزير يا جانفرَانكُو! أنت خنزير يا جانفرَانكُو! لا يتضايق هذا الملعون من هذه التسمية الكريهة لأن الخنزير هو رمز الفحولة في روما بل يشعر بالفخر والفرحة!

- . . . ؟

لم أخرج عن الموضوع، أحمد في صلب الحديث. لو سمعت أحدا يناديني "يا خنزير"، فإني سأقطع لسانه لأن الخنزير أو الحَلُوف ـ كما نسميه في بلادنا ـ مكروه لا علاقة له بالفحولة والرجولة بل هو أقرب إلى الشتيمة والإهانة. الخنزير حيوان نجس، يعيش في الأوساخ. لا أفهم لحد اليوم لماذا لم يظهر بعد مرض "جنون الخنازير"؟ لماذا أصاب المرض الخبيث البقر فقط؟ هذه المسألة تُحيّرني كثيرا.

- . . . ؟

هل رأيتم الفرق بيننا؟ أحمد لم يفهم جيدا هذه الفروق الجوهرية بين ديننا ودين جانفرَانكُو. لا أزال أذكر المخاوف التي استبدت بي عندما سمعت الناس ينادونه "أمِدِيُو"، خشيت أن يكون قد ارتدّ عن الإسلام، لم أطق الصبر والانتظار، فسألته بقلق وتوجّس: "هل اعتنقت المسيحية يا أحمد؟"، فأجابني بنبرة

صادقة: "لا". عندئذ تنفّست الصعداء وقلت بصوت مرتفع: "الحمد لله! الحمد لله!". كانت مخاوفي في محلها لأن من عادة من يعتنق ديناً جديدًا أن يغيّر اسمه القديم، هذا ما حدث بالضبط للمغني الإنجليزي المشهور "كاتْ سْتِيفنْس" الذي أطلق على نفسه اسما جديدا هو "يوسف إسلام" بعد إسلامه مباشرة.

- . . . ؟

ألا ترون ماذا تقول الصحف عن أَحمد من أكاذيب، عندما اكتشفوا أنه مهاجر وليس إيطالياً، لم يتأخّروا في اتهامه بجريمة القتل. لقد أخطأ أحمد عندما سبح خارج الحوض. اختفاؤه هذا يثير التساؤل القديم الذي حيّر أولاد الحومة كثيرا: أين ذهب أحمد أو أَمِدِيُو ـكما تسمونه أنتم-؟



العواء العاشر

السبت 25 مارس: 22,56

ما هو الفرق بين الحمامة والغراب؟ هل أنا غراب يريد تقليد الحمامة؟ ما هو العواء؟ العواء نوعان: عواء الألم وعواء الفرح. الكثير من المهاجرين المهمشين الذين يتوسّدون زجاجات البيرة والخمر في حديقة ساحة فِيتُورْيو لا يكفون عن العواء الحزين لأن عضّة الذئبة قاسية ومؤلمة. أعتقد أن العواء في بعض الأحيان كالبكاء. أما أنا فأعوي من شدّة الفرح، أنا أرضع من ثدي الذئبة برفقة اللقيطين رُومُولُو ورِيمُو. أنا أعشق الذئبة ولا أستطيع الاستغناء عن حليبها.

الاثنين 21 جانفي: 23,15

عندما ناداني أحمد! لم أتعرف عليه في الحين، أحسست بيد تحط على كتفي، تذكرته بمشقة. قال لي: "أنا عبد الله ابن حومتك! صديق أخيك فريد". تذكّرت بصعوبة الحومة وأخي فريد والجزائر. قال لي مودّعاً: "يمكن أن نلتقي يوم الجمعة في المسجد الكبير ونذهب سويا إلى مطعم مغربي قريب لنأكل الكُسكس". عندئذ تذكّرت حادثة حزينة: في إحدى المرّات استبدّ بي الحنين إلى الكُسكس، قصدت مطعماً عربياً، ما إن

تذوّقت الملعقة الأولى حتى تقيّأت. يومها عزيّت نفسي بالقول أن الكُسكس كحليب الأم تماما، له رائحة متميزة لا تسترد إلا بالاحتضان والتقبيل.

الأربعاء 5 سبتمبر : 23,27

ما أقسى أن تصوم رمضان في روما بعيدا عن البَهْجَة! ما الفائدة من الامتناع عن الأكل والشرب، ثم الأكل وحيدا؟ أين صوت المؤذن؟ أين البوراك؟ أين الكُسكس الذي تعدّه الأم بيديها؟ أين قلب اللوز؟ أين الزْلابية؟ أين الحْرِيرَة؟ أين المقْروط؟ كيف أنسى سهرات رمضان في الأحياء الشعبية والعودة إلى البيت في وقت متأخّر من الليل؟ أين صوت الوالدة المحمّل بالحنان والحب الذي يغازل أذنك: "هذا وقت السحور يا وليدي"! شهر رمضان والعيد الصغير والعيد الكبير وبقية الأعياد تدخل الحزن والشجن إلى قلبي. قالوا لي: "لماذا لا تذهب إلى المسجد الكبير بروما لصلاة العيد؟". قلت لهم: "لا، شكرا. لا أريد رؤية مئات المحرومين مثلي أي المحرومين من رائحة الأحبة!".

الجمعة 25 أكتوبر : 23,22

غدا عيد! لا شك أن أمي ستبكي كثيرا لغيابي. في مثل هذا اليوم تزداد مسافة الفراق وتبرد حرارة مشاعر الأحبة. سأتصّل بها غدا لأهنئها كعادتي في هذه المناسبات. أعرف أنها ستعاتبني قليلا في البداية ككل مرة ثم تدعو لي كثيرا في النهاية. كم أنا متشوّق لسماع هذه الجملة من فمها: "مبروك عيدك يا أحمد يا وليدي

وكل عام وأنت بخيرا".

الثلاثاء 20 مارس: 23,15

أنا مصاب بالزكام الأسترالي، لا أقوى على المشي. المرض يوقظ شيطان الحنين أو "الوحش" - كما نسميه عندنا ـ إنه الخوف من الموت: الموت بعيدا عن أنظار الأحبة، الموت وحيدا، الموت بعيدا عن الأم. "كيف أقول لأمي إني خائف" كما يقول المغني دي أنذري. أليست الراحة الأبدية في العودة إلى رحم الأم؟ ما أوحش أن يجمع رفاتك قبر في المنفى! أووووووووو ووووووووووووووووووو...

السّبت 26 أفريل: 02,14

أيقظني قبل قليل زائر الظلمات؛ إنه نفس الكابوس الذي يزورني من حين لآخر. لن أعود إلى النوم. ما هو الكابوس؟ الكابوس كلب شرس! كان جدي الفلاح الذي لم يغادر قريته في أعالي جرجرة يقول لي دائما: "عندما يهاجمك كلب، حذار أن تهرب، الزم مكانك وحدّق فيه فإنه سيتراجع، أما إذا هربت فإنه سيلحق بك ويعضّك"! أنا لا أهرب من الكوابيس، أواجهها بتذكر كل التفاصيل، أتحداها دون خوف لأن ثقب المرحاض هو قبر الكابوس. ها هو الكابوس بحذافيره:

أرى... أرى نفسي أخرج من فتحة الحياة ملطخا بالدم. قلوب الأهل تخفق بسرعة جنونية. إلى الأمام يا أمي! تقاوم أمي آلامَ الوضع وترفع رأسها بمشقة. قبل أن تمسح دموعي وتبصم

على وجنتي المحمّرتين القبلات الأولى ترمي بصرها بقلق وترقّب إلى ما تحت السرّة. إنها تتنفّس الصعداء الآن. لقد استجاب الله والأولياء الصالحون دعواتها.

- ذكر! ذكر! ذكر!

- يويويويويويويويويويويويويويويويو...

هكذا أستقبل الدنيا بالدموع وتستقبلني بالزغاريد. لا يهم إذا كان المولود الذكر جميلا أم قبيحا. لا يهم إذا كان المولود الذكر يطفح بالصحة أم مريضا. لا يهم إذا كان المولود الذكر... لا يهم إذا كان... لا شيء يهم. ما يهم هو الذكر. ما يهم أنني ذكر. ما يهم في نهاية المطاف ليس أنا. ما يهم حقاً هو ذكري.

أرى... أرى ذكري أو ذكر العائلة يكبر فيحين موعد "الطهارة". سأرى دمي يسيل وألعن الزغاريد التي تخنق نحيبي، أتذكّر زغاريد الميلاد مرة أخرى وأرى دمي يتقاطر على الأرض، لماذا ذبحوا الذكر؟ يسمّونه عرس الطهارة! لهم الغناء والرقص والفرح، ولي الألم والدموع والمعاناة. ما يحزّ في نفسي هو عدم استشارتي في الأمر. لكن هل ذكري هو ملكي أم ملكهم؟ أرى الذكر يكبر ويناضل في سرية تامة. وسرعان ما يلج الرأس الأحمر الصغير التاريخ العلني بدخوله القفص الذهبي. هكذا يتزوّج ذكري وأتورط أنا. في ليلة الزفاف يزداد حقدي على كل من كذب عليّ.

أرى... أرى نفسي أقف وحدي أمام جدار العذرية. سور الصين! جبال الهمالايا! يا حسرتي على السنوات الضائعة! قالوا لي إن الزاني يُجلد مائة جلدة. حاربوني بكل الأسلحة: الله

والأنبياء والأولياء والدين والعرف وحسن السلوك وكلام الناس والإيدز. هكذا ندخل إلى الحلبة كملاكمين يخوضان منازلتهما الأولى. هي خائفة وأنا خائف كذلك. النصائح والتوجيهات والإرشادات ستبقى خارج الغرفة الزوجية. لكن هي خائفة أكثر مني. أتشجّع بكأس أو كأسين أو ببعض السجائر. ماذا أقول لها؟ لن أقول لها شيئا. الكلام يقوّيها ويدخل إلى قلبي الوهن. إمّا قاتل أو مقتول. لا خيار آخر. إنها لا ترفع عينيها عن الأرض. إنها خائفة أكثر مني. هل أقبّلها؟ هل أداعبها؟ ما هذا اللف والدوران؟ الكل ينتظر وراء الباب. أفواه النساء مكدّسة بالزغاريد. اللعنة على الزغاريد! عليه أن يخترق الجدار. أمر لا يقبل المناقشة. قد يخذلني في آخر لحظة فأدفع الثمن غاليا. أنا لا أثق فيه. أنا لا أثق في أحد. قد أقع في فخ سحر الشرّيرات اللواتي يسرقن الفحولة من الرجال، فتحلّ بي لعنة "المَرْبُوط". لكن أليس هو السيد الذكر! إنه الوحيد الذي سينقذني من هذه الليلة الفلكلورية. هيّا إلى الأمام! لن تسمع الزغاريد إذا لم يحضر السائل المقدّس. الذكر هو سكّين يذبح العذرية! إلى الأمام! دم! دم! دم! دم! دم دم! دم!

– يو...

أرى... أرى نفسي أخرج من الغرفة ملّطخا بالدم، فيهجم عليّ أهلي وأهل العروس وضيوف العرس كالذباب الذي يهجم على الجيفة، بعد مدة قصيرة أحس بأضراس تغرز في لحمي، أرى دمي على الأرض، أفتح عيني بصعوبة فأرى ذبابا كثيرة تحاصرني من كل الجهات .أوووووووووووووووووو...

في تلك الأثناء أرى شيخا يجرجر لحية بيضاء طويلة يمر بجانبي دون أن يتوقف:

- ساعدني يا جدي.
- أنا لست جدك.
- إذا من أنت؟
- أنا لقمان الحكيم.
- ساعدني يا لقمان الحكيم.
- خذ نصائحي المحظورة، احفظها عن ظهر قلب:

"يا بني إذا كنت سائرا واعترض طريقك مسلحون، وأجبروك على التحكيم: من على الحق ومن على الباطل، قابيل أم هابيل؟ إياك أن تقول: إن قابيل على الحق وهابيل على الباطل، قد يكون المسلحون هابيليين فتهلك وإياك ثم إياك أن تقول: أن قابيل على الباطل وهابيل على الحق، قد يكون المسلحون قابيليين فتهلك، يا بني إياك ثم إياك ثم إياك أن تقول: لا قابيل ولا هابيل على الباطل فتهلك، فصدر هذا الزمن ضيّق لا يتسع للحياد. يا بني اقطع لسانك وابلعه. يا بني اهرب! اهرب! اهرب! إياك من نار الفتنة فهي أخطر من أنياب الذئاب. أوووووووووووووووووووووووووووووووووو...

على وقع هذا العواء استيقظت مرتجفاً فقصدت بلا إبطاء هذا المرحاض الصغير وشرعت في تسجيل هذه الكلمات الكابوسية.

حقيقة ماوْرُو بِتارِينِي

لقد تعلّمت من عملي كمفتش الشرطة أن الحقيقة مثل قطعة نقود، تتألف من وجهين مختلفين، الوجه الأوّل يكمّل دائما الوجه الثاني .

الحقيقة: الوجه الأوّل

بالنسبة لي التحقيق انتهى والقاتل هو أحمد سالمي المدعو أَمِدِيُو. اختفاؤه المفاجئ يُثبت ضلوعه في مقتل الشاب لُورانْزو مانْفْرِيدِي المدعو الغْلاذياتور. من عادة المجرم الفرار، الواقع يختلف كثيرا عن الأفلام، المفتش كولُومْبو هو الوحيد الذي لا يكابد مشقة البحث وإلقاء القبض على المجرمين لأنهم ببساطة يسلمون أنفسهم دون أدنى مقاومة. لسوء الحظ أنا لست المفتش كولُومْبو، أنا مطالب بتعقّب المجرمين ورميهم وراء القضبان.

- ... ؟

كُلّفت بالتحقيق في هذه الجريمة لأنني أعرف هذه المنطقة معرفة جيدة. قضيت سنوات طويلة في مركز الشرطة في شارع بَيتْرازْكا مما أتاح لي الإطلاع عن قرب على مشاكل المواطنين المقيمين في ساحة فِيتُورْيو وما جاورها. تعرفت على أحمد سالمي المدعو أَمِدِيُو عندما توسّط لحل مشكلة حمام ساحة سانْتا مارِيا ماجُورِي التي تسبّب فيها صديقه الإيراني. لا شك أن هذا المهاجر

الإيراني مجنون، في إحدى المرّات قال لي: "لماذا تلقون عليّ القبض بلا سبب بينما تتركون المنحرفين يأكلون البيتزا في المترو أحرارا في مضايقة الناس؟". ألا يستحق قائل هذا الكلام أن يُودَع في مستشفى الأمراض العقلية؟ كما طلب مني قبل سنة مساعدة مهاجر آسيوي لا أذكر بلده بالتحديد لتصحيح بعض الأخطاء في وثيقة الإقامة.

- ...؟

كان اعتقادي أن أَمِدِيُو هو متطوّع إيطالي يساند المهاجرين ويلبّي بعض خدماتهم المتعلّقة بالصحة والعمل. لا أعرف لماذا يحمّلون أنفسهم مشقة إعانة المهاجرين. الكثير من الإيطاليين يتساءلون عن مسألة طرد المهاجرين المنحرفين، خصوصا أن نصف المساجين في السجون الإيطالية أجانب، نحن بين المطرقة والسندان أو بين اليمين واليسار: صحف اليمين تنتقدنا لأننا لا نتصرف بحزم تجاه المهاجرين، أما صحف اليسار فتنتقدنا لأننا نعامل المهاجرين دون شفقة. ليس من السهل طرد المهاجرين المنحرفين لأننا لا نعرف بلدانهم وأسماءهم الحقيقية. من عادة المهاجر المنحرف تغيير اسمه وانتحال هوية مزيّفة.

- ...؟

أنا أقول إنه يجب منع عرض الأفلام والمسلسلات البوليسية لأنها صارت مدرسة لتخريج المجرمين. هناك وصفات لا تعد ولا تحصى لكيفية قتل الزوج أو العشيقة أو رئيس العمل والتخلّص من الجثة وكيفية مخادعة المحقّقين وتجنّب الوقوع في فخ استجوابات الشرطة. أعترف أن عملنا صار قاسياً ومتعباً لأن

أسرار مهنتنا في متناول الجميع. لقد أفلسنا! اللعنة على التلفزيون! قبل أيام قليلة جاء الهولندي الأشقر يبحث عنيّ في مركز الشرطة، فرحّبت به في مكتبي ظننت أن لديه معلومات مهمة حول جريمة المصعد لكنني صُدمت عندما قال لي: "يسعدني أيها المفتش أن أقترح عليك المشاركة في فيلمي الجديد". قمت من مقعدي وبذلت جهدا كبيرا في التحكّم في أعصابي ورحت أصرخ في وجهه: "اغرب عن وجهي! اغرب عن وجهي!". لو أمسكت به في تلك اللحظة لقتلته.

- . . . ؟

ليس هناك صدفة بين الجريمة والاختفاء المفاجئ، عقب العثور على جثة الشاب لُورانْزو مانْفرِيدِي في المصعد، بدأنا التحرّيات الأوّلية فاكتشفنا اختفاء أو بالأحرى هروب المتهم أَمِدِيُو. السؤال الذي طرحناه على أنفسنا: إذا كان أَمِدِيُو بريئا كما يقول جيرانه في العمارة، فلماذا لم يظهر ليبرّئ نفسه؟ المعلومات التي استقيناها من مختلف المصادر والشهود زادت من شكوكنا وجعلتنا ندقّق في هوية المتهم. لم يمض وقت طويل حتى اكتشفنا أنه مهاجر واسمه الحقيقي أحمد سالمي. قلت لكم من قبل إن من عادة المجرمين والمنحرفين تزوير المعلومات الشخصية. على ذلك وجدنا أنفسنا كمحققين أمام تحدٍ مزدوج: جمع الأدلة التي تثبت أنه مهاجر وتأكيد تورطه في جريمة القتل.

- . . . ؟

توقفنا طويلا عند مسألة الاسم ولم نعثر على اسم أَمِدِيُو في وثائقه الرسمية مثل جواز السفر، عقد الزواج، وثيقة الإقامة،

الخ. لا يمنع القانون المواطنين من تغيير أسمائهم شرط أن يتركوا الوثائق الرسمية على حالها. لم يزوّر أحمد سالمي المدعو أَمِدِيُو وثيقة رسمية واحدة. لماذا اختفى؟ هل هي مجرد صدفة أم هروب من القضاء؟ هناك شهود عيان رأوه يتشاجر مع الضحية في الليلة التي سبقت الجريمة. لا أحد يعرف السبب. كما سمعوه وهو يقول للضحية: "سأقتلك إذا فعلتها مرة أخرى!". بالنسبة لي التحقيق انتهى، أَمِدِيُو هو القاتل، فهو مجرم فارّ من العدالة. أرجو أن يسلّم نفسه بلا إبطاء.

الحقيقة: الوجه الثاني

التحقيق لم ينته وأحمد سالمي المدعو أَمِدِيُو ليس هو قاتل لُورانْزو مانْفرِيدِي المدعو الغْلاذْياتور. بعدما قامت إحدى الجرائد في صفحات الحوادث بنشر حوار معي مرفق بصورتي وبصورة أَمِدِيُو، اتصلت بي الطبيبة سِيمونيتي من مستشفى سان كاميلو وطلبت مني الحضور على عجل، ذهبت على وجه السرعة إلى المستشفى، أخذتني إلى قسم الإنعاش حيث رأيت أَمِدِيُو ممدّدا على السرير. قالت لي الطبيبة إن صباح الأربعاء 21 مارس أي اليوم الذي قُتل فيه لُورانْزو، تعرّض المريض إلى حادث مرور بينما كان يعبر الطريق قريبا من الكُولُوسِيُو، تمّ نقله على عجل إلى المستشفى. لحد الآن لا يزال في حالة غيبوبة بعد أن أصيب بجروح خطيرة في رأسه قد تعرّضه إلى فقدان الذاكرة. سألتها عن الوقت المحدّد للحادث، فقالت إن سيارة الإسعاف وصلت إلى مكان الحادث في حدود الثامنة والنصف، وهذا يعني أن الحادث الأليم قد وقع قبل ذلك بعشر دقائق تقريبا.

- . . . ؟

أَمِدِيُو ليس هو القاتل! قال الطبيب الشرعي إن الجريمة وقعت بعد الواحدة زوالا كما أكّد شهود عيان أنهم شاهدوا الضحية في صبيحة ذلك اليوم ما بين التّاسعة ومنتصف النهار. إذا ليس هناك أدنى شك: أحمد سالمي المدعو أَمِدِيُو بريء.

- . . . ؟

بعد ذلك أعدنا النظر في طريقة التحقيق، تركنا جانبا السؤال: من هو أَمِدِيُو؟ ورحنا نبحث في حياة الضحية. من يكون "الغْلاذْياتور"؟ في ظرف قصير جمعنا معلومات ثمينة عن لُورانْزو مانفرِيدي. اكتشفنا مثلا أنه كان شخصا مكروها لدى جميع سكان العمارة، كان يعود في الليل مخمورا ويبول في المصعد، تخاصم مع سانْدْرو دَنْدِينِي وأَنْطُونيُو مارِيني، اغتصب الخادمة ماريا كريستينا أكثر من مرة ولم تجرؤ على إبلاغ الشرطة خوفا من الطرد لأنها لا تملك وثيقة الإقامة، غير أنها طلبت المساعدة من أَمِدِيُو الذي لم يتأخّر عن تحذير لُورانْزو وتهديده، هذا هو سبب الشجار بين أَمِدِيُو ولُورانْزُو في الليلة التي سبقت الجريمة. من قتل لُورانْزو مانفرِيدي؟ لم يترك القاتل أي أثر في مكان الجريمة مما جعلنا نتأكد أن القاتل محترف. لا شك أن كنيته "غْلاذْياتُور" ساعدتنا كثيرا للوصول إلى القاتل أو القاتلة.

- . . . ؟

التحرّيات التي أجريناها عن الضحية قادتنا إلى اكتشاف سرّ الكُنية "الغْلاذْياتور". كان لُورانْزو مولعا بالمبارزات القاتلة التي تنتهي بموت أحد المتصارعين. في عهد الرومان كان

"الغْلاذياتور" أسيرا أو عبدا يقاتل حيواناً مفترساً كالأسد أو النمر أمام آلاف من المتفرجين في الكُولُوسِيُو بينما اهتدى لُورانْزو وبعض أصدقائه إلى لعبة قمار جديدة تقوم على مبارزات سرية بين الكلاب. هل تذكرون اختفاء الكلب الصغير فالِنْتِينُو قبل أسابيع من حدوث الجريمة؟ كان لُورانْزو وراء هذه العملية. بعد تحرّيات طويلة تمكّنت إلِزابِتا فابْيانِي من اكتشاف المسؤول عن اختطاف كلبها وقررت الانتقام منه شر انتقام إثر تأكدها من العذاب الشنيع الذي ذاقه الكلب الصغير قبل موته.

- ...؟

لقد وضعت خطة قتل متقنة إلى أبعد الحدود حيث استفادت كثيرا من حيل المسلسلات البوليسية التي تتابعها يوميا على التلفزيون. اختارت المصعد لأنه مصدر النزاعات بين سكان العمارة ثم وقع اختيارها على السكين لأنه أداة قتل زجالية مما يبعد عنها الشبهات. ثم راحت تسير حافية القدمين في ساحة فِيتُورْيو حتى تظهر للجميع أنها فقدت عقلها بسبب فقدان أو اختطاف كلبها العزيز. استطاعت أن تنفّذ خطتها بمهارة فائقة دون أن تترك أي أثر. الخطأ الوحيد الذي ارتكبته هو عدم تخلصها من أداة الجريمة. أرادت أن تحتفظ بشيء يذكرها أن قاتل فالِنْتِينُو قد نال العقاب الذي يستحقه أو ربما كانت متأكدة أن جريمتها في غاية الإتقان ولا يستطيع أحد الوصول إليها. بعد بحث دقيق عثرنا على السكين وعليه بصماتها ودم الضحية. التحقيق انتهى، وإلِزابِتا فَابْيانِي هي التي قتلت لُورانْزو مانْفرِيدي المدعو الغْلاذياتور.

العواء الأخير
أو قبل صيحة الديك

الاثنين 25 نوفمبر: 22,36

الحقيقة مُرّة كالدواء! ينبغي تناول الدواء على جرعات، قد يؤدي الدواء إلى الموت إذا تناوله المريض دفعة واحدة. ليس صحيحا أن الحقيقة تجرح (La v ¡rit¡ blesse) كما يقول الفرنسيون، الحقيقة لا تجرح وإنما تقتل. أما العواء فهو أغنية أورفي الأبدية .أوووووووووووووووووووووووو. . .

السّبت 7 ديسمبر: 22,55

قرأت هذا الصباح جملة قصيرة للشاعر الفرنسي روني شار: "هل قدرنا أن نكون مجرد بدايات للحقيقة؟". قلت في نفسي من الضروري إرفاق كلمة الحقيقة بعلامة استفهام أو علامة تعجب أو القوسين أو الشولتين .أووووووووووووو. . .

الأربعاء 25 جوان: 22,19

أنا لست في فم الذئب (La gueule du loup) كما كان يقول كاتب ياسين. لقد خرجت من فم الذئبة وارتميت في أحضانها حتى ارتويت من حليبها .أوووووووووووووووو. . .

الأحد 16 مارس: 23,38

أحياناً تتملّكني الدهشة عندما أفكّر في الأمر التالي: أنا طيّب في نظر الجميع! لكن من يدريهم؟ قد يكون أمِدِيُو قناعاً ليس إلا! أنا حيوان مفترس لا يستطيع التخلّي عن طبيعته الأولى. الحقيقة أن ذاكرتي هي حيوان مفترس كالذئب تماما: أووووووو وووووووووو . . .

الخميس 23 أفريل: 23,27

هل أنا شهرزاد؟ هي تحكي وأنا أعوي بلا ملل. كلانا يفر من الموت ويلفنا غطاء الليل. هل هناك فائدة ترجى من القص؟ آه من الذاكرة الملعونة! الذاكرة صخرة سيزيف اللعينة. من أنا؟ أحمد أم أَمِدِيُو؟ آه يا بُهْجَة! هل من سعادة بعيدا عن ابتسامتك؟ هل من راحة بعيدا عن حضنك؟ هل حان وقت الاستراحة؟ إلى متى سيدوم المنفى؟ إلى متى سيدوم العواء؟ أووووووووووووو وووووووووووووو . . .

السّبت 23 مارس: 23,55

علمني يا سيدتي الجليلة حرفة التملّص من الموت. علمني يا شهرزاد كيف أكر وأفر من غضب شهريار وحقده. علّمني كيف أُبعد سيف شهريار عن رقبتي. علمني يا شهرزاد كيف أنتصر على شهريار الذي يسكنني. ذاكرتي هي شهريار .أووووو وووووووووووووو . . ذاكرتي هي شهريار. أووووووووووووو

وووووو... ذاكرتي هي شهريار... أووووووووووووووووووو
و... ذاكرتي هي شهريار... أوووووووووووو...

روما

(2001 - 21 أفريل 2003)



الوصول إلى الحقيقة يتطلب إزالة العوائق
التي تعترض المعرفة ، ومن أهم هذه العوائق
رواسب الجهل وسيطرة العادة ، والتبجيل المفرط لمفكري الماضي
إن الأفكار الصحيحة يجب أن تثبت بالتجربة

حصريات مجلة الابتسامة

** شهر سبتمبر 2017 **

www.ibtesamah.com/vb

التعليم ليس استعداداً للحياة ، إنه الحياة ذاتها
جون ديوي
فيلسوف وعالم نفس أمريكي



الدار العربية للعلوم
Arab Scientific Publishers

منشورات الاختلاف

عمارة لخوص في هذه الرواية ما لعله أكبر إضافة ظهرت خلال عقود للروايات التي قاربت
سؤال وعي الذات والعالم، منذ توفيق الحكيم إلى الطيب صالح. إنه سؤال الحضارة والتاريخ
الصراع والاندماج والثقافة، تحمله هذه الرواية من العصف الجزائري عشية القرن العشرين إلى
الآخر الإيطالي، حيث يتفجر السؤال جريمة وذئبة وعواءً وذاكرة يسكنها شهريار والرواية
شهرزاد حكاية وحياة. وبكل ذلك يحقّ لعمارة لخوص أن يباهي بهذه الرواية الفريدة.

– نبيل سليمان

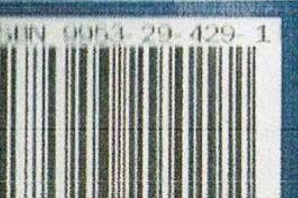
إعجابي بهذه الرواية إعجاب نابع من متعة عالية وفرتها لي إلى جانب معرفة حملتها هذه الرواية. هذه
الفن الحقيقي الذي يجسد متعة المعرفة من خلال الجميل. توظيف الكاتب للرموز (رمز الذئبة
السبعين) وثالثهما المهاجر الذي تشرب المدينة والثقافة بالكامل توظيف يتسم بدرجة عالية من الدقة
الثقافة. ما أروع الأمثولة. ليت الكاتب يكتبها بالإيطالية لتترجم إلى اللغات الأوروبية الأخرى، لأنها
الكثير عن المهاجرين مما لا يستطيع البحث أن يقوله بنفس الكثافة والمتعة».

– نصر حامد أبو زيد

عمارة لخوص نصّه هذا بكثير من المكر والمراوغة والوعي الفنّي حتّى يكون نصّاً مختلفاً يحاكي
المنفى وواقع المهاجر في إيطاليا. إنها رواية الهروب من الذاكرة الجريحة ومأساة العيش دونها بين
أن الذئبة الضارية روما ... رواية ترضع الفلسفة والأدب والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا
السياسة دون أن تسقط في مزالق الإيديولوجيا أو في الخطابية الفجّة ولا عضّتها التعليمية الساذجة.

– كمال الرياحي

لخوص من مواليد الجزائر العاصمة عام 1970، تخرّج من معهد الفلسفة بجامعة الجزائر عام
، حصل على الماجستير في الأنثروبولوجيا الثقافية من جامعة روما عام 2002. يحضّر حاليا
حة الدكتوراة في نفس الجامعة حول المهاجرين العرب المقيمين بإيطاليا. نشر روايته الأولى «البق
صان» باللغتين العربية والإيطالية في روما عام 1999. يقيم في العاصمة الإيطالية منذ عام 1995
ينشط في مجالات مختلفة كالترجمة والصحافة، ويشتغل حالياً في وكالة (آكي) الإيطالية للأنباء.
كتابة روايته «كيف ترضع من الذئبة دون أن تعضك» باللغة الإيطالية وستصدر عن دار النشر
لية المعروفة (E/O).





منشورات الاختلاف
14 شارع جلول مشدل
الجزائر العاصمة

العربية للعلوم
Arab Scientific Publish
www.asp.com.lb


Exclusive
For
www.ibtesama.com